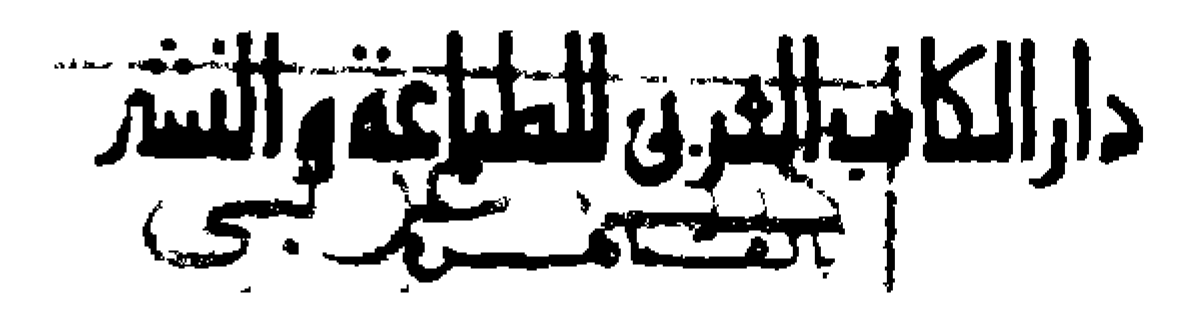

پول إيلوار
مع مختارات من شعره
بقلم : لويس باروث
جان مارسيناك
ترجمة
فؤاد حداد

پول إيلوار

مع مختارات من شعره

بقلم : لويس باروش
وجان مارسيناك

ترجمة : فؤاد حداد



لقد أراد بول ايلوار فى المذكرات التى تتألف منها حاشية ديوانه « فى الموعد الألمانى » أن يمدنا بالايضاح اللازم عن المناسبات التى كتبت فيها معظم قصائد الديوان ·

وهذه التعليقات تضيف الى القصائد ثروة وغنى فكل منها يشرح الآخر ويزود القارىء بقيمة مزدوجة · فالتعليق يحيي فى أنفسنا ذكرى العهد الذى ولدت فيه هذه القصائد ويربطنا اليها بعرا وثيقة مرئية · أما القصائد فانها تطلعنا ، بطريقة أفضل من كل النشرات الاعلامية المستفيضة ، عن الحالة الفكرية للمثقفين الفرنسيين خلال الأربع سنوات التى قضوها في ظل الاحتلال . وهذه النصوص القصيرة قد كتبت ببساطة تلهب العواطف وقد بلغت درجة من الكمال تضاهى أروع الصفحات النثرية التى أنشأها بول ايلوار . وانها فوق ذلك صاحبة فضل لا يمكن الاستعاضة عنه فهى تثبت لنا العلاقات المتصلة بين الانتاج الشعرى والعصر الذى أوحى بهذا الانتاج . وقد كثر الجدل حول هذه العلاقات ولكن علينا ان ننظر ونتساءل الم يستطع ايلوار دائما أن يستخرج الشعر من الحدث العابر والواقعة الصغيرة التى لم تكن لتقدم لغيره من الكتاب الا مادة هزيلة لـ « مقالة صحفية » . انها لنفس الكلمات ونفس الأحداث اليومية ولكن الشاعر قد أعاد لها مغزاها الحقيقى وبث فيها الحيوية وأعاد تجميعها وفقا لنظام دقيق ، نفس النظام الذى أخضع له نفسه بدون أن يحيط

بقوانينه تماما . وبفضله أصبح من المستطاع أن يقيد فى بضعة أبيات تاريخ هذه الأعوام الأخيرة بكل ما فيها من مراحل سعيدة أو أليمة ومن ساعات اعتراها الضعف أو أضاءها الأمل . وقد احتفظت هذه الأبيات بالصورة الأصيلة التى سجلتها ذاكرة شعرية لا يغيب عنها شيء أبدا .

والحق أن كل الذين اشتركوا على قدر طاقاتهم فى حركة المقاومة ، لا يمكنهم أن ينسوا المساهمة الهامة من جانب بول ايلوار فى تنظيم هذه المقاومة . هذا شاعر لم يكن فى ظاهر الامور مايدل على أنه سيقوم بعمل شاق تحف به الاخطار وأنه سيهب له نفسه بالكامل . لقد كان ينظم القصائد التى أسهم نشرها الى مدى بعيد فى البعث الروحى لفرنسا وفى نفس الوقت كان يعاون فى تجميع عدد كبير من الأدباء الشبان .

وهذا الكتاب الذى يحاول أن يعطى صورة صادقة شاملة عن شاعر « عاصمة الألم » قد نشر لأول مرة فى ابريل ١٩٤٤ فكان عليه أن يتجنب تسليط الضوء على هذا النشاط وكل ما كان فى أستطاعته هو أن يوحى به للقارىء حتى يستشفه بين السطور . وعلى كل حال فقد أظهر كتابى بوضوح أن ليس هناك انفصام ، أيا كان فى هذا العمل المتواصل . فان صاحبه قد بذل بأكمله لوجه الشعر أى لوجه الحقيقة . وكانت آخر قصائده صدى للأبيات الأولى التى نظمها ايلوار وهى « قصائد من أجل السلام » التى صدرت خلال الحرب العالمية الأولى . ولا يصعب على القارىء بعد ذلك أن يستخلص الموقف الوطنى الذى وقفه الشاعر فى أعوام الاحتلال الأربعة . وان توخى الأمانة والدقة قد حملنى الى اضافة هذه الصفحات القليلة الى دراستى .

ان السنوات الصفراء التى سبقت الحرب ثم الحرب وشتاء ١٩٤٠ ــ ١٩٤١ هذا الشتاء الذى اضطر الشاعر الى أن يظل شهرا في بيته دون أن يفتح النوافذ لشدة البرد ، هذه الفترة التى

رت الاعلانات والتهديدات وقوائم الرهائن تلصق على جدران باريس ، فيحس البعض بالخوف والجميع بالعار ، ان هذه الأيام هى التى ألهمت ايلوار أشهر قصائده . لقد تغنى فيها بتعاسات بلاد لا تريد أن تيئس بل هى تعثر فى آلامها على السبب المحتم لثورتها . وقد صور فيها باريس . باريس التى لم تعد تغنى فى الشوارع وشعبها الذى لا يقبل الرضوخ ووجوه الأبرياء الذين يساقون الى الموت والنضال الذى يضطلع به ابطال كثيرون لم يبق لهم من شيء الا الرغبة العارمة فى الحاق الضرر بالمعتدى الأثيم .
ان كل الذين قابلوا ايلوار فى شوارع هذه المدينة التى عاش فيها دائما ، قد استطاعوا أن يدركوا مدى حبه وتقديره لهذا الشعب « الذى لا يقبل الضيم » . كان يروح ويجيء بين أحياء المدينة وحقيبته فى يده قد أثقلتهـا الاوراق المحظورة والطبعات السرية وهو فى خطر داهم دائم من أن يلقى القبض عليه فى أى لحظة . ومنذ صدور ديوان « الشعر والحقيقة » وقد أعلن المعهد الألمانى أنه منشور خطير ، كان لايمر شهر على ايلوار دون أن يغير مسكنه . فلا يحمل فى كل مرة الا هذه الأوراق المطوية التى كان ينسخ فيها مسودات قصائده . وقد عاش لمدة طويلة هذه الحياة التى عرفها كثير من المثقفين ولكن ما أقل الذين استطاعوا مثله أن يعبروا عنها بكل ما فيها من شقاء وعظمة .

وليست بعض قصائد ايلوار ، وبالأخص « أسلحة الألم » ، الا نقلا أمينا وتسجيلا شعريا لمختلف الحوادث المؤلمة التى كانت تنشرها الصحف الالمانية فى باريس وفيشى فى أبوابها المخصصة للارهاب . ان هذه القصائد الرائعة التى أوحت بها المناسبات قد أصبحت سلاحا دعائيا خطيرا فى أيدى الأنصار والمناضلين . لقد نشرت فى كل مكان فى فرنسا ونسخت ووزعت مع المنشورات التى كانت تتداولها مراكز المقاومة . وتضاعف نشاط بول ايلوار الشعرى وقد اختلط منذ ذلك الحين بنشاطه الوطنى . وكان

يشرف ، مـــع جان لسـكير ، على اصـــدار « شرف الشعراء » و « أوروبا » وهى دواوين مشتركة ســاهم فيها أغلب الشعراء ويمكن أن تتصور المصـــاعب التى تكتنف مثل هذا العمل • فهو يقتضى أولا جمع النصوص وخداع الجستابو ورقابتها ثم يقتضى السهر يوميا مع الجماعين وعمال المطابع ومعاونة المكلفين بتوصيل هذه الكتابات ، هؤلاء أناس لا يكثر عنهم الحديث وهؤلاء يدين لهم الأدب السرى بجميل لا يقدر بثمن .

والى بول ايلوار يرجع فضل المبادرة بنشر « تقويم الآداب الفرنسية » وكان منفذيها جورج أدأم وكلود مورجان وهما المحركان الأساسيان « للآداب الفرنسية » وهى الصـــحيفة السرية التى اشترك ايلوار فى تحريرها ونشر فيها مقالة طويلة عن الشاعر ماكس جاكوب • وقبيل التحرير وعندما تزايدت مخاطر النشر أصـدر ايلوار منشور « بيجى ــ بيرى » من « مطبوعات منتصف الليل » •

فى كل مكان يجب معاونة المقاومة لكى يصل صوتها ويسمع ، كان بول ايلوار موجوداً . لقد تبدى الشاعر كأعظم ما يكون الرجل المناضل الشجاع المستنير •

وكلنا نذكر ترحيب جميع الرجال الأحرار بقصائد « الشعر والحقيقة ٤٢ » . كان بول ايلوار فى قصيدة « فكرة واحدة » (لقد ولدت لأعرفك ولأدعوك باسمك) قد اشار وعظم هذه الحرية التى صودرت منا . وقد نشرت كل مجلات العالم مقاطع هـذه القصيدة الرائعة ، من جنيف الى الجزائر ومن نيـويورك الى موسـكو • وقد أعيد طبع معظم قصـــائد الديوان فى سويسرا ثم أعيد طبعها مرة أخرى فى فرنسا بعنوان جديد « جديرون بكرامة الحياة » • وفى جنيف نشر فى ديوان « السرير والمائدة » قصــائد أخرى لا تقل بلاغة وتأثيرا ومنها قصيدته المستوحاة من جويا ، ومنها قصيدة « نقد الشعر » ويختمها بهذا البيت الذى يصمى ويعمى مثل طلقة من نار :

ديكور قد أعدموه .

وفى فبراير عام ١٩٤٤ عاد بول ايلوار من الريف حيث قضى بضعة شهور فى مهمة من أجل تنسيق الاتصال بين المنطقتين . عاد أكثر حماسا فى مواصلة كفاحه هذا الذى لم ينقطع عنه فى يـــوم من الأيام . عاد الى مشغله الخطرة ومسيراته الطويلة عبر باريس . وفى يولية عام ١٩٤٤ أصدر «المجلة الخالدة» وكان يريد بها ان يجمع حوله خيرة كتابنا الشبان وقد كتب يقول « ان الشعر ، مرة أخرى ، يرد على التحدى ويتجمع ويعثر على المعنى الدقيق لعنفه الكامن ويصرخ ويتهم ويأمل . »

وفى باريس وقد تحررت الآن ، لا يجهل بول ايلوار أن الكفاح مازال يدعو الشعراء الذين « يجب أن يناضلوا بشىء آخر غــير الكلمات » ولا يساوره اليأس من أن يتحقق الحلم الذى صوره فى قصيدة « المنحدرات السفلى » التى كتبها فى أوائل أيام الاحتلال.

حلم الأبرياء الوحيد
همس واحد صباح واحد
والمواسم فى ائتلاف واحد
تلون بالجليد وبالنار
افواجا تجمعت اخيرا

ان أمنية الشاعر هــذه لم تتحقق بعد . فالحرب لاتزال مستمرة ، ولم نعرف بعد كل ما ستتخذه من الاشكال . ان « عهد الظلم » مازال قائما ومازال يثير مقاومة الشاعر وغضبه . وفى قصيدته « فليفهم من يريد » أو ان التناقضات التى تتحكم فى عدالة عمياء تضرب بدون تفريق . يقول بول ايلوار :

« رأيتهن فى حــالة من البله تدعو للرثاء وهن يرتعدن من الخوف تحت ضحكات الجموع . هؤلاء النساء لم يبعن فرنسا . وهن على كل حال لم يلقين الدروس الأخلاقية على أحد . هذا

بينما المجـــرمون الذين يتقلدون الوجوه البريئة . قـــد ذهبوا . بل ان عددا منهم ، وقد شعروا باقتدارهم ، مكثوا فى بيوتهم آمنين، على أمل أن يعاودوا غدا ما فعلوه بالأمس .

ولكى تتم هذه العدالة ، التى يخلط الشعراء وهم محقون بينها وبين الشعر . يقف اليوم بول ايلوار الى جانب أولئك الذين يريدون أن يسرعوا بقدوم ساعتها .

وأنا أرى الشاعر فى خلال هذه الأعوام الأربعة . انى أراه في جبال لوزير حيث كان قد هرب من الجستابو ، واختبأ في ملجأ المجاذيب في سان ألبان . وظل طوال شهرين يعمل وينظم القصائد يستلهمها من بؤس وشقاء هؤلاء المجاذيب وهو يعيش فى وسطهم . انى أرى الهضبة الشـــاسعة وقد غطاها الجليد وعصفت فوقهـــا دوامات الريح وأرى النوافذ التى تسهر خلفها وجوه موحشـــة وعيون زائغة وأرى المقبرة الصغيرة أشبه ما تكون بتلك المقابر التى يرد وصفها فى روايات الرعب . وأرى ايلوار وهو يذهب فى الجليد والبرد ويستقل القطار الى المدينة الصغيرة المجـــاورة حيث عليه أن يصحح بعض الملازم . فقد كان يصدر فى سان فلور أعـــداد « المكتبة الفرنسية » تلك الاعداد التى لا يمكن أن نعثر عليها اليوم والتى يمكن مقارنتها بأجمل طبـاعة أنجزتها الصـحافة السرية . وانى أراه أيضا وهو يتوقف فى كليرمون فيران ليقابل الاصدقاء بعد أن التقى بغيرهم فى أنتيب وفيلنيف ورسم معهم الخطوط العريضة لعمل مشترك كبير لا بد أن يثمر . فلم يحدث يوما أن ضعف ايمانه ويقينه فى أن جهود المقاومة لا بد وان تكلل بالنصر النهائي . وكان يعود الينا من كل رحلة يقوم بها بأسباب جديدة تدعو وتعين على الامل . هذا الامل الذى يلتحم بكل أعمـاله وهو نفس الأمل الذى ينعشنا اليوم ويهدينا الى الحياة .

لويس باروت
٧ مارس ١٩٤٥

ينبغي للدراسة الأدبية عندما تتناول شاعرا من الشعراء أن ترمى الى غرض واحد ليس الا • وهو أن تكون له مرآة صادقة أمينة وألا تعكس منه الا صورة واحدة تمتزج فيها حياته وعمله امتزاجا وثيقا • ان أقل اشارة لهــذه الناحية أو تلك من حياة الشــاعر أو للمناسبات والظروف التى أتم فيها كتابة أعماله لأكثر فائدة فى تفهم هذه الأعمال من التعليقات العلمية العويصة • ولكن ما أكثر الذين يتحدثون عن القصائد والدواوين بدون أن يولوا أى اعتبار لصاحبها • وكأنهم يرون أن النتاج الشعرى يولد من نفســه مثل زهر الأوركيدا بلا جذور • ولكم أثار سخطنا أن نطلع على كتب لم يكن من المفروض فيها الا أن تعمل على افادتنا واعلامنا فاذا بهــا لا تعدو تهويمات تشرد بنا عن الموضــوع ولا تخبرنا بشىء عنه • ولا شك أن مثل هذه الكتب تعطينــا على الأقل فكرة عن صاحبها فنكتشف فيه ناقدا مثلا أو منظرا من منظرى علم الجمــال ولكنها لا تترك لنا فرصة نتعلم من خلالها شيئا عن الشاعر الذى اتخذوا منه موضوعا لدراستهم ، فيظل فى الظل لا نرى وجهه ولا نطلع على شىء منه •

والعمل الشعرى يقــوم بدور الملهم ومن المطلوب أن تكون جوانبه المختلفة مثارا للجدل والتعليق ، الأمر الذى يدل على اشعاعه

فى الآخرين • ولكن من المرغوب فيه أيضا أن يثير هذا العمل أبحاثا تتناول صميم طبيعته • واذا كان من العبث أن نحاول شرح العمل الشعرى فمن المفيد بالعكس أن نشير الى الظروف التى ولد فيها وأن نلقى الضوء ونحدد بعض المعالم فى حياة صاحبه • كلنا يعلم الدقة التى يتم بها ترتيب وتحليل كل الوثائق التى تتصل من بعيد أو قريب بحياة أرتور ريمبو • فمن مقابلتها بكتب الشاعر يمكن أن ينشأ تفسير جديد قد يختلف تمام الاختلاف عن رأى الشاعر فى شعره هو ، وقد يقصر عن بلوغ المرام ، ولكنه فى كافة الاحوال دليل قائم على الحيوية العميقة التى تتمتع بها أعمال هذا الشاعر •

والأمر بالمثل فيما نراه لكل الشعراء • ولكن من الصعوبة بمكان أن نرسم صورة محكمة دقيقة لملامح أولئك الذين قد اجتهدوا طوال حياتهم فى اخفائها ، وكانوا حسنى النية فى غالب الأحيان • وبول ايلوار واحد منهم ومن بين الشعراء الذين لعبوا دورا هاما فى خلال السنوات العشرين الاخيرة • فمما لا شك فيه أن مؤلف «عاصمة الألم» كان من أوائل الذين نسجت الاساطير حولهم خيوطها المليئة بالأخطاء والمغالطات ورسمت لهصورا متعددة منها مايثير الاعجاب ومنها ما يثير السخط • وكان من شأن المغامرة السريالية أن تشجع على انتشار هذه الأساطير لتخدم الدعاية لها • وعلينا قبل كل شيء أن نعيد النظر فى هذا كله ، فان الترجمة الدقيقة لحياة الشاعر أجدر وأولى بأن تلقى الضوء على شعره •

ونحن هنا أمام حالة خاصة • نحن أمام شاعر يتمثل لنا بانتاج قد يبدو خفيفا للوهلة الأولى • وهذا الانتاج يتألف معظمه من قصائد قصيرة استخدم فى كتابتها الكلمات المألوفة وجاءت صورها فى كثير من الاحيان بسيطة للغاية بل هى البساطة نفسها • على أن هذا الانتاج قد كان كافيا ليشغل مؤلفه مكانة كبيرة بين

أعظم شعائرنا . وقد خصصت له دراسات لا تحصى ، ولم يعد يمر يوم الا وتصــــلنا فيه شهادة جديدة على مدى تأثيره ونفوذه . فهل هناك سر في جاذبية هذا الشعر وفى الحماس الحار الذى يحيطه به كل شباب الشعراء فى أيامنا . ســــنحاول فى هذه الدراسة أن نشرح هذه الظاهرة وستكون طريقتنا أن نورد بعض العناصر التى تؤلف سيرة الشاعر والتى لا يمكن التهوين من أهميتها اذا أردنا أن نتفهمه ونحبه . ويمكن أن يقــال ان هــذا الكتاب مجموعة من المعلومات نريد بها أن نساهم فى دراسة الشاعر وفى تقريب أعماله الى القراء وفى اكتساب قراء جدد . وقد حظر المؤلف على نفسه أن يحيد عن هــذا الهدف فلم يتحدث عن الصــــداقة التى تربطه بالشاعر وقد كان من الممكن بلا شك أن تتيح لهذه الدراسة مجالا للاسترسال والاستطراد فتخرج بها عن الاطار المحدد لها .

ولد بول ايلوار فى يوم ١٤ ديسمبر فى مدينة سان دينيس · وقد ارتبطت هـذه المدينة فى ذاكرتنا بريفهـا الموحش وبعواميد الدخان الثقيلة المتصاعدة فى سمائها وبواجهة كنيستها التى يتراوح لونها بين الوردى والرمادى حسب الفصـول · وهى مدينة حمراء ومدينة ملكية · وقد وصفها فرلين فى بيت شديد القسـوة فقال « عندما تتجه الى سـان دينيس تجد الريف أبله قذرا » فنفايات الحديد والفحم ترسم فى بعض الأحيان منحدرات وطرقا بينما تختفى الجداول خلف أحواش الحدائق العمـالية · وهذه الجـداول كانت الصديق المخلص لأيام طفولته الأولى ، التى غلبتهـا الحدة والمرض وتنازعتها دوافع الحنان والانكسار ·

وقد أمضى ايلوار طفولته بين « سـان دينيس » و « أولنى سوبوا » وهاتان المدينتان يصل بينهما طريق يشبه الصدف الصدىء يساير قناة « الأورك » · ان انعكاسات الأشجار ومداخن المصانع فى مياه القناة الميتة قد ألقت على قصائد ايلوار الأولى ضوءها المتذبذب الحيران · وكثيرا ما عاودت الشاعر هـذه المناظر الكئيبة المحيطة بالمدينة والضـاحية كمـا جاء الحديث عنها فى دواوين الشـعراء « الاجماعيين » وقد أخذ ايلوار فى قراءتها منذ عام ١٩١٢ · وعندما أتم الثانية عشرة حضر بول ايلوار الى باريس وعاش فيهـا أربع سنوات وكان تلميذا فى مدرسة كولبير وقد أراد له القدر أن تكون

اقامته طوال هذه الاعوام فى شارع لويس بلان بالقرب من قناة أيضا !

ولكنه اضطر عندما بلغ السادسة عشرة أن يترك باريس ليذهب الى سويسرا · فقدكان مريضا وأشىر عليه الاطباء بالاستشفاء فى الجبال العالية · وسوف نعثر فى قصائده الغرامية على ذكريات من هذه الأيام التى قضاها أمام حقول الجليد تحت السماء الصافية · وقد امتدت اقامته فى سويسرا الى عامين عاد بعدهما وقد شفى من مرضه وأصبح فى سن الجندية · وكان ذلك فى عام ١٩١٤ فما كان يصل الى باريس حتى أرسل الى ميدان الحرب ·

وقد تأثرت قصائد ايلوار الأولى بهذه السنوات التى قضاها فى المصحة ثم فى الجبهة على صلة وثيقة مستمرة بشقاء الناس ، فقد كان ايلوار ممرضا ثم جنديا فى المشاة ·

ان ايلوار قد نظم الشعر قبل الحرب وألهم الحب المبكر صباه الأول · ولكن أول القصائد التى نعرفها له قد نشرت فى عام ١٩١٧ وينعكس فيها كل ماكان يحس به الرجال عندئذ من قلق وأمل وتكشف عن الحالة المعنوية التى كان عليها الشعراء الشبان فى ذلك العهد · وقد كان لهذه الأبيات الأولى لهجة متميزة تستشف منها طابع الشاب الذى نظمها على فراش النقاهة أو فى الخندق · ولكن هناك ما هو أخطر من ذلك وأهم ، فان بول ايلوار الذى تطاوعه لغة منتقاة وموسيقية يستطيع أن يعزف عليها أدق الأنغام ، لا يجهل أن الشاعر لا يمكنه أن ينأى عن مشاركة البشر فى آلامهم تلك الآلام التى اختبر هو بنفسه كل شدتها وقسوتها ويريد لها أن تكون أول شىء يعبر عنه فى شعره · لقد قاسم الناس حياتهم التعيسة ويستطيع أن يقول أن كل شىء يأتى من الشعب يثير اهتمامه مثله مثل والت ويتمان وكان ايلوار فى ذلك الوقت يقرأ له ويعاود قراءة ديوانه « ورق الأعشاب » · ان هذا الشقاء المشترك بين الجميع

هو الذى سيلهم شاعرنا ، ويمده فى نفس الوقت بكل أســـباب الأمل ٠

ونجد فى قصائده الأولى بعض الصور المؤلمة يتخللها أمل هش مثل قوله تحت عنوان « الرماد الحى » فى كتابه « خوافى حياة » :

« انى أستحق الموت ٠ فلتأكل خبزك وأنت جالس فى العربة التى تحملك الى المشنقة فلتأكل خبزك فى اطمئنان ٠ سبق وقلت أنى لم أعد أنتظر الفجر ٠ فالليل خالد مثلى أنا » ٠

ولكننا نلمح منذ قصائده الأولى هــذا الاتجاه المزدوج الذى سيظل ساريا فى كل أعماله ٠ فكلما أراد أن يقول لنا مايحس به من كآبة من جراء دنيا كأنما أبعدت عنها السعادة ، فرضت الصور المبتسمة نفسها على قصائده ٠ وتوافيه هذه الصور من مشاهدته للشارع والحيوانات والضياء وكلها تريد أيضا أن يعبر عنها ٠ ان الشاعر قد جعل من واجبه أن يسمعنا أغنية جادة طيبة ولكن هناك فى نفس الوقت صورا خفيفة خالية من الهم يريد الشاعر أن يقدمها لنا دون تشويه لها ٠

انه مزيج من الخشونة والرقة ٠ قسمتان تسيطران على قصائد شبابه وصباه وتتوازنان فى القصائد التى أخذ ينسخها بخط طفل مجتهد وتألفت منهــا فيما بعد أول كتيباته الشــعرية : « الواجب والقلق » (١٩١٧) « وقصائد من أجل السلام » (يوليه ١٩١٨) :

« أوقدت نارا عندما تخلت عنى زرقة السماء نارا لكى أكون صديقها » ٠٠

ومهما كان من أمر الصداقة الحارة فى صحوتها الدائمة وفى حدبها والتماسها للأشياء الأليفة والحجارة فى الطريق والنار والمطر ووجوه المارة ، فانها لا تكفى وحدها اذا أردنا أن نلم بما يمنح لجوهر هذه القصائد اشعاعها البعيد القوى ٠

فايلوار يقول مثلا ، فى قصيدته باريس المرحة :

ليس هناك ما هو أقسى من الحرب شتاء ·

وما أن ينتهي من قوله حتى نرى الكلمات قد أضيئت بضوء داخلي لا ندري مصدره · هنالك اذن شيء آخر يجب أن نضيفه الى حماسته في الصداقة والحب وهو اجتهاده في أن يصيب بالحق وأن يوضح الصور التي توافيه حتى تكتسب الكلمات المستخدمة في تصويرها قيمتها الواقعية ومغزاها الحقيقي · ودليل ايلوار في هذا كله حبه للبساطة ومعرفته للكلمات المعبرة عنها ومن اليسير علينا أن نلاحظ عندما نعيد قراءة أعماله الممتدة على مدى خمسة وعشرين عاما أن هذه الاعمال تدريب مستمر وتقييم منسجم لهاتين الصفتين اللتين يختلط كمالهما المشترك في نفسية الشاعر ·

وعلينا هنا ، لكي نشرح هذا الاتجاه المزدوج عند ايلوار أن ندخل في اعتبارنا التيارات التي وقع تحت تأثيرها في شبابه · ان الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى مباشرة كانت من أغنى عهود الأدب في بلادنا · وكان الشعر الحديث منقسما بين أصدقاء جول رومان والمعجبين بجيوم أبو لينير · وكان الشباب يتابعون باهتمام لا يخلو من الضجة في كثير من الأحيان ، الجدل الدائر بين الاجماعيين والتكعيبيين · وشاهدت هذه الأيام أفول المدرسة الرمزية وكان موقف الاحماعيين منها مفيدا للغاية · ومن الجائز أن يكون بول ايلوار قد تعلم منهم الوقار واستخدام الكلمات البسيطة التي يفهمها الجميع · كما أنه من الجائز أن يكون قد تعلم من منافسيهم حب العنصر المباغت وروح الابتكار والغنائية · كان الاجماعيون يمنحون كلمات قصائدهم معنى عميقا ومضمونا اجتماعيا ويحاولون أن يمثلوا الروح الاجماعية التي يرسمون باصرار والحاح كل التغيرات والتحولات التي تمر بها ·

أما الآخرون فقد كانت قصائدهم تبدو أكثر خفة وبهجة ، في ظاهرها على الأقل ، وكأنما يريدون ألا يعلق في الذهن من كلمات

تلك القصائد الا العبـــارات الموسـيقية والتلوين الخفى على طريقة مصورى عام ١٩١٢ · وكان ايلوار قد اطلع على كتبهم كلها ولكنه قد قرأ أيضا الروائيين الانجليز والألمان والفلاسفة الماديين وجان بول وشيلى ونوفاليس وهيراكلينوس ، ولا يجب أن ننسى طبعـا نرفال وريمبو وبودلير (وقد علق على كتاباته بمقالات موفقة جدا) ثم بعد ذلك لونرياموں · وأصدقاء ايلوار يعلمون كيف يطالع كتيبات الشعراء الشـبان بعناية بالغة · فليس هناك محاولة جديدة الا وعنده علم بها · وهو على علم أيضا بكل تراث الشعر الفرنسى · ففى العشرين من عمره كان قد قرأ كل الشعراء · وقد أثرت عليه هذه القراءات تأثيرا معقدا متباينا يصعب علينا أن نتعرف عليه حتى فى أعماله الأولى · ولكن الأمر المؤكد هو أنه قد تشربت نفسه بهذا التأثير ·

وقد أثارت «قصائد من أجل السـلام » منذ صدورها اهتمام الكاتب جان بولان وكان يومئـذ يرأس تحرير مجـلة « المتفرج » ويعمل فى الترجمة من اللغة الملجاشية (لغة مدغشقر) ويحضر رسالة فى موضوع وما زال يعمل فى هذه الرسالة حتى اليوم فى عام ١٩٤٤ ·

وقد أصبح الرجلان صديقين حميمين وكان جان بولان يهتم بالأبحاث اللغوية التى يقوم بها مؤلف « قصائد من أجل السلام » · وبعد عامين من هـذا اللقاء كتب بولان مقدمـة ديوان « قدوات » لايلوار · وفى نفس الوقت وفى ظروف غريبة قصها علينا أندريه برتيون فى كتابه « ناديا » ، تعرف ايلوار على بعض الكتاب الشبان الذين ظهرت أسـماؤهم فى بعض المجلات الأدبية ومنهـا مجلة « شمال ــ جنوب » التى كان يرأسها بيير ريفردى · ومن هؤلاء الكتاب أندرى برتيون وسوبو وأراجون ثم بعد ذلك تزارا · وكان لقاؤهم بداية مغامرة روحية كبرى ·

ولا يمكن أن نمر مر الكرام بهذا اللقاء الغريب ، فقد كان من أثره أن تألف هؤلاء الفتيان فى مجموعة تربطها الصداقة ، صداقة لم تنفصم عراها الا بعد سنوات عديدة تخللتها ضروب مختلفة من المشاحنات وسوء التفاهم · وقد كان فى انتظارهم وقتئذ عمل عظيم · كانت الحركة الداداوية قد أغرمت بالفضيحة من أجل الفضيحة واجتهدت فى أن تهدم ، بوحشية لم تخل من الأناقة فى بعض الأحيان ، القيم البرجوازية بعد أن عرتها الحرب من قشرتها وكشفت عن كل نواقصها · ثم أخذت الداداوية تستسلم أمام فتوحات حركة تشتمل على برنامج متكامل لاعادة البناء لا يقتصر على الآداب وحدها · ولهذا البرنامج كرس بريتون وايلوار وأراجون أنفسهم · ونشرت مجلة « الأدب » وهى أولى المجلات السوريالية (من ١٩١٩ الى ١٩٢٤) كتاب « الحقول المغناطيسية » لبريتون وسوبو كما نشرت القصائد التى جمعها أراجون فيما بعد فى ديوانه « نار الفرحة » وقصائد ايلوار التى تألف منها عام ١٩٢٦ ديوان « عاصمة الألم » · وكانت المجلة تنشر أيضا « قصائد » ايزيدور ديكاس ·

وفى ذلك الوقت كتب أندرى جيد يقول : « انى أرى أن أعظم أمجاد السورياليين هو أنهم اكتشفوا وأعلنوا عن أهمية لوتريامون الرائع التى تفوق مجال الأدب » ·

والحقيقة أن السرياليين قد استأهلوا اعجاب أتباعهم بأعمال أخرى فان « ناديا » و « عاصمة الألم » و « فلاح باريس » التى ظهرت فى هذه السنوات التى رأى فيها النقاد ازدهار « السريالية التاريخية » يمكن اعتبارها من أهم الكتب التى صدرت فى تلك الفترة · وما زالت قوية التأثير حتى الآن · أما «الحقول المغناطيسية» فقد كانت فى أعين الكثير من الشعراء الشبان أروع مثال لمفهوم الشعر السريالى · فقد جاء هذا الكتاب الذى استخدم الكتابة

الأوتوماتيكية فى وقته ليكون تبريرا لنظريات المجموعة • وقد كشف فيه أحد مؤلفيه ، أندرى بريتون ، عن مواهب باهرة وكان هــذا المنظر هو المحرك الحقيقى لهــذا المحور الروحى الذى لم يضــعف اشعاعه بعد • وكان له على « المركز السريالى » كله أثر يتسم بطابع الصداقة والشدة فى نفس الوقت • وقــد اعترف بول ايلوار فى أكثر من مناسبة بهذا الأثر وبالفائدة التى اكتسبها منه • وقد أعلن فى محاضرة ألقاها عام ١٩٣٧ فى مقر فرقة الشان ايليزيه الكوميدية أن أندرى بريتون « قد كان وما زال واحدا من الذين علموه التفكير ومنذ ذلك العهد أبعدت الخلافات السياســية والحرب بين ايلوار وبين الكثير من خيرة أصدقائه • ولكن بعضهم قد ظل فى فرنسا : وهم على كل حال ليسوا أقلهم قدرا •

وكانت هذه المجموعة من الأصدقاء ، رغم تنوعها الشــديد ، أشد المجموعات ترابطا وكانت تتميز عند تكوينهــا بالتماســك المطلق • فقد كان لهؤلاء الشبان ، على اختلاف طباعهم وشخصياتهم • فكرة مشتركة • كانوا يعلمون ماذا يريدون ولا يدخرون جهدا فى اعلان ارادتهم • واذا كان كل منهم فيما بعد قد ســلك ســبيلا مختلفا ، فقد كان اتفاقهم من عام ١٩٢٢ الى عام ١٩٢٥ كاملا وكانوا جميعا ، بلا اســتثناء تقريبا ، يخضعون للنظام الذى يتفقون عليه بعد ليال من المناقشات الصاخبة • وهناك لوحة من تصوير ماكس ارنست (١٩٢٢) بعنوان « موعد الأصدقاء » نرى فيها كل الشعراء السرياليين مجتمعين وفى صحبتهم جان بولان وشــيريكو والرســام نفسه وأشباح (؟) روفائيل ودستويفسكى ••

وكان ايلوار قد تعرف بصاحب هذه اللوحة منذ ســنتين فى مدينة كولونيا • وقد لعبت الصداقة التى ربطته بالرسام ماكس ارنست دورا حاسما فى تطور أفكار الشــاعر • فقد كان ماكس ارنست فنانا كاملا وشــاعرا ومنظرا من منظرى السريالية منـذ

نشأتها وقد مارس تأثيرا هائلا على بول ايلوار • ولم يسبق للشعر والتصوير أن تضامنا وتفاعلا مثلما حدث فى ذلك العهد حيث كان الشعراء يرسمون والرسامون ينظمون القصائد • وقد كتب ايلوار فيما بعد فى كتاب « البداهة الشعرية » :

« كان المصورون السرياليون يبذلون جميعا نفس المجهود لتحرير الرؤيا ولضم الخيال الى الطبيعة ولاعتبار كل ما هو ممكن واقعا وللتدليل على أن ليس هناك أى ازدواج بين الخيال والواقع وأن كل ما يستطيع العقل البشرى أن يتصوره ويخلقه انما ينبع من نفس المصور وأنه من نفس المادة التى يتألف منها لحم الانسان ودمه والعالم المحيط به » •

وهكذا كتب للسريالية أن تهب التصوير دورا شاعريا من الطراز الأول ، وليس من المستغرب بعد ذلك أن يسيطر ثلاثة من الرسامين على عالم بول ايلوار • وهؤلاء الثلاثة هم : ارنست وبيكاسو وشيريكو • فهو معجب بذكاء أولهم اللامع القادر على تحوير كل ما يحيط به ، واستخدام الكلمات والألوان تارة وتارة للتعبير عما لا يمكن التعبير عنه ، فيتيسر لنا بذلك النفاذ الى عالم « لا يستعصى فيه شيء على الادراك » كما يقول ايلوار • وهو يقول أيضا فى الحديث عن ارنست :

« فى كل الأوراق التى لصقها ببعضها البعض وفى كل المواد التى تداولتها يداه وفى كل اللوحات التى رسمها مارس الرسام ارادته فى الخلط بين الأشكال والأحداث والألوان والعواطف والأحاسيس » •

أما بيكاسو ، فان ايلوار خير من يقدر جرأته الدائمة والسلاسة الرائعة فى خدمة تكنيك لن يحيط الانسان أبدا بكل موارده ، وقد كتب عنه قصائد عديدة وصفحات كثيرة تعتبر من أفضل ماقاله فى النقد •

أما شيريكو ، فقد احتفظ ايلوار لمدة سنوات طويلة بأشهر لوحاته ومنها « مانيكانات البرج الوردى » و « رحيل الشاعر » وهو يحب رسومه الميتافيزيقية ويعتبره امتدادا لليوناردو دافينشى وبيرانسير وأوكسلو ٠

ولا يمكن الحكم على الانتاج الشعرى فى ذلك العهد دون الالمام بتأثير التصوير على هذا الانتاج وتأثير منظرى فن التصوير على وجه الخصوص ٠

وهناك رسامون آخرون قد ظفروا بصداقة الشاعر فيما بين عام ١٩٢٠ وعام ١٩٣٠ ٠ وقد جاء ذكرهم جميعا فى قصائده وفى المقالات النثرية القصيرة التى أهداها لهم وجمعها تحت عنوان « مصورون » فى كتابه « أعطهم ليروا » ، ومنهم آرب وماجريت ومان راى وجوان ميرو وأندرى ماسون وايف تانجى وسلفادور دالى ٠٠٠ ولكن صداقة ماكس بارنست الذى كان ول من عرفه الشاعر من هؤلاء المصورين ، قد ظلت أخصب الصداقات ٠ وقد اشترك معه ايلوار فى كتابه « تعاسات الخالدين » (١٩٢٢) ٠ وقد رسم ارنست فيما بعد كثيرا من كتب ايلوار ومنها « اعادات » و « الصمت » و « الأغنية الكاملة » ٠

وجاء كتاب « تعاسات الخالدين » فى فترة من أوفق فترات التعاون بين الرسام والشاعر ، وقد سبقه كتاب «الحيوانات وناسهم» الذى يختلف عنه تمام الاختلاف ٠ وقد ألف ايلوار هذا الكتاب فى فرساى بعد تسريحه من الجندية بقليل (١٩٢٠) وقد ظهرت فى كامل بساطتها رغبته فى « أن يظل نقيا نقاء مطلقا ، هذه الرغبة التى جعلت ايلوار يؤثر دائما الكلمات التى قد تنقصها المهارة ولكنها لا تخلو من العاطفة على « الأسلوب الممقوت الذى يشبع الثرثارين » ويتميز هذا الكتيب بالاهتمام الدائب على أن يقوم الشعر بدور التبادل المشترك بين البشر ٠ وتقتصر البحوث التى يجريها الشاعر

فيه على الثروات الشعرية التى تتضمنها اللغة · وكان الكتاب خاتمة لاختبارات قام بها ماكس ارنست وايلوار وعملا بعد ذلك على توجيهها الى وجهات جديدة · وكلمات الكتاب بسيطة الى أقصى الحدود فهى اللغة المألوفة التى نسمعها كل يوم · ويدعونا المؤلف نفسه الى ألا نشك لحظة فى « وضوح الوسائل التى يستخدمها » : « زجاج صاف وشمس وليمون وزهرة المستحية الخفيفة » ولكن يحدث عند اجتماع هذه الكلمات الدارجة كما يحدث فى كل قصائد ايلوار ، أن يتولد منها مغزى جديد يصعب تحليله · وهى كلمات لا ينبعث منها أى لهيب و لاتتأجج وتأتلق الا عندما يزودها ايلوار بكل علمه الشعرى ، الا عندما يكثف فيها هذا العلم · وسنعثر فيما بعد على هذه الكثافة ولكن فى شكل مصغر جدا ، فى بعض قصائد « الكتاب المفتوح » ·

وتتسم « ضرورات الحياة » و « عواقب الأحلام » و « اعادات » بنفس هذه البحوث اللغوية ، أما « الموت من ألا تموت » فقد انشغل فيه الشاعر باهتمامات أخرى · لقد سيطر الشاعر على الكلمات التى يستخدمها ، فهو يوكل اليها مهمة التعبير عما يحب وعن ذاته · وقد أصبحت قصيدته « أغنية كاملة » تنصهر فيها الأصوات العميقة وان كان الشاعر لا يزال سامعها الوحيد · وهناك موضوع يتولد من كل هذه الصور المكدسة ويقودها : رعشة تسرى فى خلال القصائد فتلتمع الصور التى شحنت بها ولكن هذه الصور التى تتألق وتخرق المألوف وتبهرنا ويشبهها النقاد بالمأساة السوداء لا تمنعنا من أن نتبين مجراها الصميم وموسيقاها · ويتحدث الحب هنا بقلب مفتوح ، فى قصائد جادة ولطيفة فى نفس الوقت يتخلل نسجها اسم جالا التى قابلها ايلوار فى سويسرا عام ١٩١٢ · وطوال السنوات التى تبعت هذا اللقاء كان الحب الذى يختلط بالشعر هو الموضوع الوحيد الذى نظم فيه ايلوار قصائده ·

وسيهديها الشاعر « حب الشعر » الذى يقول عنه « هذا كتاب لا ينتهي » • وسيقول ايلوار فى القصائد الأخيرة من « عاصمة الألم » : « أنا أغني لكى أغنى ، أنا أحبك لكى أغنى • ومعظم هذه القصائد أغاني حب : ونستشف فيها يأسا يلطف ويرق فى شعر غنائى محتشم جاد :

« ياعذبة عندما تنامين ، يختلط الليل بالنهار » ••

ان مؤرخي السريالية سيولون اهتماما كبيرا بنشاط ايلوار وأصدقائه فى هذه الفترة • يقول جورج هوفى آن نهاية عام ١٩٢٢ قد أمدت السريالية بعنصر جديد : « كانت هذه هى فترة النوم •• كانوا يبحثون فى أعماق التنويم المغناطيسى عن الاجات السرية التى يبوح بها اللاوعى • » وفى هذه السنة (١٩٢٢) أصدر ايلوار « اعادات » • وفيما بعد ، عندما أتم « الموت من ألا تموت » كانت السريالية قد ارسيت على قواعد واصطلاحات وأصدر بريتون « بيانه الأول » وانشغل فى كتابة قصائد « سمكة تذوب » •

وكانت مجموعة الأصدقاء منذ عدة سنوات تتقاسم نفس الحماس العقلى ، ولكن شملها قد بدأ فى التصدع وتوالت «القضايا» جهارا نهارا • وكان ايلوار قد تزوج فى نفس العام الذى صدر فيه « الواجب والقلق » ورزق من زوجه ببنت سماها سيسيل ، تلك التى قال عنها فى « خوافى حياة » :

« ان ابنتى جالسة أمامي هادئة مثل الشمعة » ثم قال عنها بعد عشرين عاما فى ديوان « الشعر والحقيقة ١٩٤٢ » :

ابنتى يا فراشة
اتخذت شكل الكوب
حيث تشربين
وينعكس جناحاك •

لقد كان ايلوار فى عام ١٩٢٤ يشترك بنشاط دافق فى أعمال « المركز » ومناظراته · وكانوا يمكثون فى بعض الأحيان حتى الفجر يتجادلون فى المقهى حول تحديد مفهوم نقطة من نقاط علم الجمال أو فى وزن العبارات التى يجب أن تحتويها رسالة شتائم الى خصومهم · ولكن هذا النشاط المرهق والمتعدد الجوانب قد عجز من أن يمحو من ذاكرة ايلوار كل ما توالى عليه من خيبة الظن والأمل وما تراكم من أحزان خاصة · فهل كان قد أحس بالكلل أو شعر بحاجته الى العزلة ؟ لقد اختفى ايلوار فى ذات يوم من أيام مارس ١٩٢٤ ، وانتشر فى باريس خبر وفاته · ولم يكن الأقارب والزملاء على يقين من شىء · وأبنته بعض الصحف · وكان أندرى بريتون بادى القلق على مصير صديقه وجاء على لسانه :

« أين هو ؟ وأين ذهب ؟ وكيف أصبح ؟ وكيف أصبح الصمت من حوله ؟ وماذا فعل بمهامه المديدة وبعينيه النفطية المجنونة وبصخب فى صدره متلقى الطرق البشرية ، ما الذى حدث بين مثلثاته ودوائره ؟ وأى ريح تدفعه وهو الذى أضاءت شمعة مصباحه على مدارج الظروف ؟

الواقع أن ايلوار كان قد أحس بالكلل وبخيبة الأمل احساسا فظيعا فأراد أن يهرب من نفسه وأن ينسى · فأبحر فى يوم ١٥ مارس ١٩٢٤ على أول مركب يقوم من مارسيليا ، وغادر فرنسا دون خبر ·

ومضى فى رحلة طويلة حول العالم ، رحلة لم يكن من ورائها هدف محدد · وألقت به المقادير هنا وهناك فى المحيط الهادى وماليزيا والهند · ونعلم أقل من القليل عن هذه الرحلة · ان أسماء الأراضى التى رسا عليها فى سفره قد تثير خيال الشعراء ولكنها لم تترك طابعها فى خياله أو هكذا كان يظن على الأقل · لم يكن سائحا مثل بارنبوث ولا كان استعداده الذهنى يشبه حالة بودلير على ما

يقول الرواة الرومانسيون عندما أزمع « السفر الى الجزر » . لقد رحل ليتوه . وقد تكون الصور التى قابلته فى الطريق هى الصور السحرية التى ما زالت تساوره وان كان لا يدرى . لقد زار جزر الأنتيل وباناما وتاهيتى وجزر كوك ونيوزيلاندا وأستراليا وجاوه وسومطره والهند الصينية وسيلان ، فكانت مراحل سفر ما زال يواصله فى ذات نفسه بحثا عن الصور التى كانت تبعثها هذه الأسماء أيام طفولته تحت دخان قناة الأورك ، ولم يكن بعد قد رأى « الأرض زرقاء مثل برتقالة » . وقد أوشكت أوروبا القديمة أن تفقده الى الأبد ، فى مكان ما من بحار الجنوب حيث يتنبأ طلاب المغامرات بمستقبل زاهر للشعراء الهائمين . وبعد سبعة أشهر من التشرد لحق به أحباؤه فى سنغافورة فأنهى فراره واستقل معهم باخرة هولاندية عادت بهم جميعا الى مارسيليا .

ومن السهل علينا أن نتصور كتاب التراجم وهم يعلقون على هذه الرحلة قيمة كبيرة ويجهدون أنفسهم للعثور فى قصائد بول ايلوار على كل ما يشير من بعيد أو قريب الى هذه المغامرة . ولكن ايلوار يحذرنا بنفسه ويقول : لقد كانت رحلة هزؤا (نفس العبارات التى استخدمها الأديب الرمزى أوريان فى الحديث عن رحلته) ولم أكن أرمى من ورائها الى استخلاص أى « فائدة شعرية » . فاذا تراءت لنا بين الفينة والفينة ذكرى تنبعث من هذه الرحلة وتتضمنها احدى قصائده فاننا نراه فى نفس الوقت يسرع الى تظليل صورتها هربا من الاستسهال . فكأنما هو قام بهذه الرحلة الطويلة فى منامه ، وكأنما لم يتبق منها غير أسمال متناثرة لا يهتم كثيرا باعادة تجميعها .

ونحن نعرف المكانة التى يحتلها الحلم فى الشعر السريالى فى ذلك العهد ، وقد أدت التفسيرات العلمية حول مفهوم اللاوعى الى كثير من المناقشات الحماسية . وقد نقل أندرى بريتون فى كتابه

« ناديا » بعض هذه الأحلام التى نجم عن ترجمتها عدد لا بأس به من القصائد الغريبة · ويقص علينـا بول ايلوار أنه قد رأى فى الحلم ، بعد رجوعه من باريس ، *قصرا يطل على منظر مصرى* وقـد شاهد فى حلمه النباتات المتبانيـة والدهاليز الطويلة والدرجـات العظيمة التى لا نهاية لهـا · وعند قاعدة الدرج رأى امرأة نحيفة سمراء تجلس القرفصـاء · وفى الغـداة ، عندما دخل الى « مقهى الميدان الأبيض » حيث كان يلتقى كل مساء بأصدقائه شاهد المرأة التى رآها فى حلمه وكانت تتحدث عن قصور تريد بناءها · وكان حديثها فيما يبدو يشرح رؤيا الشاعر ·

وقد يقـول البعض انها قصـة عبرة سرعـن ما تنسى · وقد يكون الأمر كذلك ولكن هذه الحادثة قد جاءت كاملة الوصف فى مقدمة قصيدة من ديوان « الوردة العمومية » الصادر بعدها بسنوات عديدة · يقول بول ايلوار :

« وقد شيدت لنفسها قصرا يشبه البركة فى الغابة ، لأن كل مظاهر الضوء كانت مختفية فى المرايا · ورقد كنز فضيلتها الشفاف فى عمق أعماق الذهب والزمرد ، مثل الجعران » ·

والواقع أن هذا المنظر الهش الذى رسمه الشاعر بأرق الألوان والذى كان يرعش منذ أمد بعيد فى ذكراته مثل « القاعة فى قرار البحيرة » ، قد خطر للشاعر أو لاح له على الأرجح من قديم ، ولكنه كان فى حاجة الى أن يبعث الحلم حياة جديدة فيه ، ثم يأتى اللقاء الغريب فيمنحه صفة الواقع البادى لجميع العيون ·

وهكذا ، أراد ايلوار أو لم يرد ، فان كل الصور التى لمحها فيما مضى يعود ضوؤها فجأة ، بعد أن تجمع فى نفسه وظل حبيسا فى طويته لمدة طويلة ، يعود فجأة فتتلون به الكلمات الداكنة التى يستخدمها ، وتسرى شعلة فى قالب الأبيات فتلتمع بوهج مصفى · وهذا الضوء البعيد هو الذى يحيل اليوم الحصى الى جواهر ·

ولكن الأبقى والأهم بالنسبة اليه رحلاته المتعددة واقامته فى بعض بلدان أوروبا • ففى عام ١٩٢٣ ذهب بول ايلوار الى روما حيث استقبله جورج دى شيريكو فى منظر يغطيه الجليد والأنقاض وتلقى أطلال القصور ظلالها الطويلة فوق الثرى • ثم اتجه الى فينا ومنها الى براغ مدينة الشعراء والأقاصيص الغريبة حيث يلتقى بذكرى الشاعر ابولينير الذى قال عن براغ :

« ترى نفسك هناك مصورا فى اليواقيت »

كذلك يقول ايلوار :

« لقد سالت الحياة كلهـا فى تجاعيدى مثل ياقوتة لتشكل أجمل أقنعة الموتى » •

وهو يحب سويسرا وله فيها كثير من الذكريات السعيدة والبائسة : وما أكثر ما انعكست فى قصائده صور جبالها العالية وسماؤها الصافية • فقد كانت له فيها ، وهو مريض ، اقامة طويلة ، وقضى فيها شهورا عديدة من الارهاق والكلل تتخللها وثبات الشباب والصحة • وهناك دأب فى صبر على تجميع قصائد « الحب الشعر » •

« جبينى على الزجاج مثل الساهرين على الألم أنا أبحث عنك وراء الانتظار •

ووراء نفسى » •

وسافر بول ايلوار ويذهب الى بلجيكا حيث له كثير من النقاد المحبين والأتباع المتحمسين • وقد كانت المجلات البلجيكية هى السابقة فى الحديث عن السريالية التى انضم اليها معظم الشعراء والرسامين المتجمعين حول ماجريت ونوجى وبول ديلفو •

وقد ذهب ايلوار أيضا الى انجلترا • وهو لأصله النورماندى، يحب الجداول والحدائق الواسعة يغطيها الضباب ويحب المياه الدافقة والخمائل • ويحب لندن ويعيش هناك فى ضيافة رولاندبزوز الذى

أدخل السريالية فى انجلترا • وأخـذ ايلوار فى قراءة جون دون وكيتس وشيلى وسوينبرن بعد أن قرأهما قراءة أولى وهو فى العشرين من عمره • وفى جنان كورنواى الخضراء نظم قصيدة «النعاس بعدى» وهى من أجمل قصائد ديوانه « المجرى الطبيعى » ويقول فيها :

« كانت الأرض وأشباحها ترمينى بأحضان من الهمس ـ وهى تعيد على الأحاديث التى تثملنى » •

وأقام ايلوار فى اسبانيا قبيل الحرب الأهلية ، وتعرف هناك على شعرائها • وقد ترجم ايلوار فى عام ١٩٣٩ قصـــيدة لفدريكو جارسيا لوركا وقد عاون بكافة الطرق فى التمجيد الذى لقيه هذا الشاعر فى بلادنا •

وكان بيكاسو فى ذلك الوقت قد أعاد اكتشافه لبلاده اسبانيا مدريد وأشبيلية وبرشلونة وكذلك تكشفت لايلوار أسرار هذه البلاد وخفاياها • ان المصائب التى نزلت بشعب أسبانيا قد ألهمت ايلوار قصائد عظيمة مثـــل جرنيقه ونوفمبر ١٩٣٦ وهى تقارن بقوتها وعنفها اللوحات الرائعة التى رسمها بيكاسو عام ١٩٣٧ وصور فيها المعذبين والشهداء •

ونتساءل هنا : هل كان لابد وأن يتغرب بول ايلوار لتكتسب صوره هذا الألق الذى تضفيه أحيانا ذكرى مدينة لمحت على عجل أو نظرة من انسان يعبر فى الطريق ؟ والجواب لا بكل تأكيد • ولكن هذه الأسفار قد ساعدت بلا شك فى اثراء تلك الصور • فلكى يتولد فى يوم من الأيام بيت من الشعر الجميل كم قضى ايلوار من الساعات يتأمل مشهدا قد لا يلتفت اليه غيره ويتأمل حركة الجموع ويتأمل الأزهار ونمـوها البطىء فى حديقة سان جرمان ، ويتأمل البحر الأبيض ويحس الاصغاء الى هدير أمواجه •

وما الذى عثر عليه ايلوار فى أسفاره هذه فاختلجت به نفسه حق الاختلاج ؟ لم يكن أكثر ما أثاره فى روما أطلالها الشـهيرة ولا

دهاليز متاحفها ولكن الشارع الصغير العادى الذى يغطيه الجليد ويطل عليه من غرفة الفندق الذى قاده اليه شيريكو · ومن انجلترا تأثر ايلوار بالخضرة الداكنه واجتماع المياه ووصفها وصفا أمينا فى « كلماته المرسومة » · ان ذكرى الحادثة العادية هى التى تفرض نفسها على الشاعر وتتألف منها بعد ذلك عناصر بيت القصيد · وهكذا تعود عبر السنوات ذكرى كانت قد أنسيت وتتلون فجأة ، ولكنها فى الطريق قد تحورت وازدادت غنى وأحاطت نفسها ، مثل القواقع التى ترسب فيها ملح البحار الزائلة ، بهالة منيرة · ان سلفادور دالى يحدثنا عن هذه « الخواطر المنيرة » التى تبزغ فى ظلماتنا وتفرض وجودها على أبصارنا وتتحدث الى خيالنا · ويقول عنها ايلوار : « ان انفجارات الزمن ثمار ناضجة دائما فى الذاكرة » وعلى الشاعر أن يكون على قدر من المهارة ليتكهن بحدوثها ويلتقط الاشعاع الذى يثيره انبثاقها ·

وبعد شهور قليلة من عودته الى باريس نظم ايلوار آخر قصائد ديوانه « عاصمة الألم » (١٩٢٦) · وقد صادف عنوان الكتاب شهرة عجيبة وكان ايلوار فى مبدأ الأمر ينوى أن يسميه « فن التعاسة » · وقد ضم الديوان قصائد بعيدة المغزى وأصبح ايلوار باعتراف الجميع هو الممثل الأول للشعر الجديد · وسيتأكد من الدواوين التالية قدرة الشاعر على أن يثرى نفسه باستمرار وأن يحسن من الوسائل التى يستخدمها · وقد أثبت الشاعر وجوده فى هذا الديوان وجودا كاملا فى جميع قصائده التى امتازت بجمال وفتون لا مثيل لهما وقد ألهمت أجيالا عديدة من الشعراء وما زالت حتى اليوم تحتفظ بكل قوتها ونضارتها الأولى · وتمتزج الحركة الدرامية فى بعضها بحلاوة مقاطع الأغانى الغرامية :

« أحلامها فى الضياء الساطع

تتبخر منها الشموس

وتجعلنى أضحك ، أبكى وأضحك
واتكلم وليس عندى ما أقوله »
ان عاصمة الألم كتاب لاينضب معينه ٠

وفى السنوات التى أعقبت صدور هذا الكتاب الذى يمكن اعتباره أهم دواوين الشعر السريالى الأول ، وجه بول ايلوار جزءا كبيرا من نشاطه الى تحرير وادارة مجلتى « الثورة السريالية » و « السريالية فى خدمة الثورة » كما عمل فى نشر أدب الدعاية الذى كان يحلو للنقاد أن يطلقوا عليه فى ذلك الوقت الأدب الهدام ٠ ويختلط تاريخ ايلوار فى ذلك العهد بتاريخ الحركة الأدبية كما تختلط حياته بحياة أصدقائه ٠ ان ايلوار يلتقى بهم كل يوم تقريبا حيث يشتركون فى وضع المشروعات التى تم انجاز معظمها ٠ ومن هذا التعاون المستمر بينه وبين أصدقائه تتولد البيانات ومقدمات المعارض وتوضيحات يعيدون فيها النظر باستمرار ومنشورات ـ يستحيل العثور عليها الآن ـ وكتب ٠ وقد اشتركوا فى تأليف كثير من الأعمال التى ظهرت حينذاك ٠ وكان السرياليون قد عثروا على قول لوثر يامون : « ينبغى للشعر أن يصنعه الجميع ، لا شخص واحد » وكانوا يستشهدون بهذا القول كثيرا ويرون فيه سببا من الأسباب التى تدعوهم الى الكتابة ٠ فليس الشعر فى نظرهم حرفة لا يعلم أسرارها الا البعض بل الشعر شىء يجب أن يكون فى متناول الجميع ما دام يريد قبل كل شىء أن يلهم سائر البشر ٠ وانطلاقا من هذه الروح ، أخذ ايلوار وأصدقاؤه فى نظم القصائد المشتركة ٠ وكان ايلوار منذ عام ١٩٢٥ قد جمع مع بنجامين بيرى كتاب « ١٥٢ مثلا أعيدت صياغتها لتتفق مع الذوق المعاصر » ٠ وفى عام ١٩٣٠ أصدر ايلوار بالاشتراك مع رينى شار وأندرى بريتون ديوان « ابطاء الأعمال »

وفى عام ١٩٣٧ ظهر كتاب « الأيدى الحرة » الذى اشترك فى

تأليفه الرسام مان راى والشاعر بول ايلوار • وكان الرسام هو الذى يبدأ باقتراح الموضوح وعلى الشاعر بعد ذلك أن يجد القصيدة التى تلقى عليه الضوء • وقد استخدم ايلوار الصور الشعرية وابتعد عن التشبيه • كان مان راى هو الذى يرسم الاطـار وفى داخله يطلع علينا ايلوار بقصيدة يحيط بها الرسم مثل الهالة • وقد جمع ايلوار كلمات قصائده فى أناة وصبر وذكاء •وقد نجم عن خضوعه للموضوع المقترح صـور بسيطة وملاحظات يتتـابع تدوينها ويمكن التقاطها وادراكها من الوهلة الأولى •

وهذه الكتب كلها اختبارات يقـوم بها الشـاعر فتضيف الى انتاجه عناصر جديدة ثمينة • وقد تبدو الرتابة على قصـائد هذه الفترة ولكنها رتابة ظاهرية فقـط • فهى متشـابهة الشكل ولكن مضمونها يزداد ثراء بلا انقطاع •

وهذا الاثراء أوضح ما يكون فى الكتابات النثرية . « فالليالى المقتسمة » (فى كتاب « الحياة المباشرة » ـ ١٩٣٢) لاتدين بشىء للعالم الخارجى فهى صفحة من الترجمة الذاتية تمتاز لهجتها بالشرف والنبل ويذكر فيها ايلوار بأسـلوب لا تثقله البلاغة والتفاصح أيام أن كان الحب يعينه على الحياة . ولم تكن الذكريات الأليمة قد أدمته بعد فهو يقول :

« وبعد نهاية رحلة طويلة ، قد لا أعود ثانية الى هذا الباب الذى أحسن معرفته كلانا ، وقد لا أدخل ثانية الى هذه الحجرة التى أجتذبنى اليها أكثر من مرة يأسى ورغبتى فى التخلص من هذا اليأس .

هى قصـة حب كبير تتراوح فيهـا اللحظات السعيدة وأيام القنوط . ويزن الشـاعر عشرين عاما من حياته اختلطت فيها الأساطير الباسمة بالحقائق المريعة التى أرادت الحياة من خلالها أن تنال من حبه كما يقول . وهو يقول بعد ذلك : « ولكى أعثر

على أسباب تدعونى الى الحياة ، حاولت أن أهدم ما يدعونى الى حبك • ولكى أعثر على أسباب تدعونى الى حبك لم أعش كما كان يحسن أن أعيش »

وهكذا يعبر الشاعر في كلمات تتقطع لها القلوب وفى صفحات هى من أكثف ماكتبه ، يعبر عن حب يريد أن يظل على قيد الحياة وعن الحزن الممض الذى يثيره فى الشاعر احساسه بهلاك هذا الحب . ولا ريب أن أشكال الشعر لم تكن تكفى للتعبير عن هذا كله فكان لابد من اللجوء الى عناصر جديدة تثمر بامكانيات جديدة •

وقد عاب الكثيرون على الشعراء السرياليين أن « النفس ينقصهم » . وهو مأخذ لا يمكن تبريره اذا نحن أعدنا مطالعة كتابات ايلوار النثرية التى لا تشبه أى نثر آخر اللهم الا نثر بودلير وبعض ماكتبه مالارميه فى « هذيان » . ان ايلوار لا يمط فى صوره الشعرية مثلما يفعل بعض الشعراء فى كتاباتهم النثرية ولكنه دائما يلزم هذه الصور أبعادها الصحيحة • ان « النفس » الذى يتحدث عنه هؤلاء النقاد ليس فى غالب الاحيان الا تفاصح ولكنه عند ايلوار يظل قائما فى حدود مرسومة بصرامة •

وتمضى كتابات ايلوار النثرية فى استرسال مهيب ودقة تستشف وتتأنق وتتنقل جملة من صورة الى أخرى يصل بينها نسيج محكم الدقة ، فتتجدد المعجزة التى أشار اليها ايلوار فى حديثه عن قصائد بودلير النثرية . ان اللغة الفرنسية لغة لاشاعرية وقد زودها نرفال وبودلير بأداة جديدة هى « قصيدة النثر » ، ثم شاهدت فى السنوات التى تلت الحرب الاولى أشكالا جديدة أخرى • فلم يعد المطلوب من لغة الشعر أن « تتكيف مع حركات الوجدان وتموجات الحلم ووثبات الضمير » كما يقول بودلير ، ولكن على هذه اللغة أن تفعل مفعولها فى الضمير نفسه وأن تثير الحلم والهيام كما شاءت • ولم يكن للشعراء السرياليين من هدف

آخر ولهذا فقد كانوا يطالبون من أجل بلوغ هذا الهدف ، بالحرية الكاملة فى قصائدهم • ولكنهم قد رأوا من الواجب عليهم ليكونوا أهلا لهذه الحرية أن يصلوا اليها عن طريق نظام صارم دقيق ، ويجب على الشاعر أن يدعم هذا النظام باستمرار • فمن السذاجة الظن بأن السريالية تمنح حق التصرف للصالح والطالح حتى يستفيدوا من هذه الحرية ، بل السريالية على العكس تماما تفرض قوانينها الخفية وتفرض على العمل نبرة الصدق التى تمكن من تقييمه بحق ، وتفرض قواعد لاهوادة فيها • السريالية ترى أن بضع كلمات تكفى لتتألق الفتنة السحرية ، ولكنها كلمات يجب أن يتأنوا فى انتقائها ، يجب أن توزن وتقدر حق قدرها فى الرنين والنغم ! وقد يأخذ البعض على الكتاب السرياليين اسرافهم فى استخدام هذه الحرية ولكنى أرى أنه لا بد من يوم سيتأكد فيه أن أغنى النثر فى عصرنا وأصفاه انما هو النثر الذى كتبه هؤلاء الشعراء . ولا أسف اذا كانوا لم يخضعوا فى كتاباتهم لقواعد البلاغة النثرية كما يزعم البعض ؛ يكفيهم أنهم كانوا أبعد الناس عن النثر المنمق الفظيع الذى أفرط فيه الشعراء من قبلهم .

وقد جمع ايلوار كتاباته النثرية فى كتاب « أعطهم ليروا » وهى جميعا كتابات أملتها المناسبة . ولكنها مناسبات فرضت نفسها عليه بحيث لا يمكنه أن يرفض الاذعان لها والتعبير عنها . وهو عندما يدرس شاعرا من الشعراء (اقرأ « مرآة بودلير » و « البداهة الشعرية ») يلجأ أيضا الى الايجاز والدقة المطلقة . ان كتابات ايلوار النثرية ليست امتدادا أو تكملة لقصائده . ولكنها أرض جديدة لعالمه الشعرى ولغة مختلفة يتدخل فيها المنطق والعقل فيربطان وينسقان بين الصور المندفعة الى سطحها فنستوعبها مباشرة .

ولكننا لا نعتبر هذه الكتابات « قصائد نثر » و لا نعتبرها « نثرا شعريا » ولن نحكم عليها من خلال مفهوم الايقاع وهو مفهوم

يستعصى على التعريف . فان الجمل فى نثر ايلوار تتسلسل وفقا لقانون لا صلة له بقانون الايقاع الذى تطالب به قصيدة النثر . فنحن بعيدون عن هذا الشكل السفاح الذى هو قصيدة النثر . ان قيمة هذه الكتابات فى كثافتها الشديدة وفى حرية الصور التى تزهر فيها دون أن ترهقها القيود التى يلتزم بها فى قصائده .

واذا كان على أن أجد لها ما يقابلها فى الفنون التشكيلية لشبهتها بالمغارات التى كان يطالعها موزار فى طفولته وصباه وقد أعدتها يد الفنان الباروكى وشكلت حجارتها باقتدار لا يخلو من مسحة التصنع فى بعض الاحيان . فقد يدخل ايلوار الى الموضوع بجملة مألوفة مثل : « مع السلامة . بسرعة ، اتبع الحركة ، كلف نفسك مشقة الجرى .. » فيجد القارىء نفسه بعد ذلك وقد مضى فى سرداب تحت الارض وفى متاهة من الصور المتألقة يمكنه اذا أحسن الانتباه أن يكتشف كل كناياتها . وخير مثال على نوع هذا النثر مقالته « الرفات الحية » أو أقصوصة « مجتهدة » ويظهر فيها وجه بشرى يختلف تماما عن الوجوه التى تشع عادة فى قصائده ، وجه فتاة صغيرة تشبه الدمية الملونة العارية . ومجتهدة هو اسم البطلة وهى تذكرنا بالفتاة البائسة فى قصائد مالارميه النثرية . ومجتهدة « تخاف من الريف وحقوله الباردة وغربانه المطفأة وأكواخه المتباعدة عن بعضها البعض وكأنها تعرب عن الكراهية الهائلة بلا مداراة والى الأبد ... مجتهدة تجز على أسنانها من الغضب وتأكل شفتى قناعها مثل جمرتين » . مجتهدة هى اليس فى بلاد العجائب ولكنها العجائب الكئيبة التى تقدمها لنا الحياة اليومية ، لعبة مكسورة وعصفور ميت وأبسط الاشياء هذه التى تتضمن كل شعر الدنيا ، وسوف نجدها فيما بعد فى « العاب الدمية » فى الجزء الثانى من « الكتاب المفتوح » فى نص رائع لم يتجاوز الشاعر روعته حتى الآن .

وفى الفترة التى أخذ فى كتابة هذه المقالات النثرية نلاحظ أن تغيرا عميقا قد حدث عند بول ايلوار . يبدو وكأن الشاعر قد بلغ قمة فنه وهو يتجنب تقليد نفسه وتكرارها فيجب عليه أن يتجدد ويستبدل من مواضيع الالهام التى انتقصت قدرتها ويقوم بجرد الوسائل الموجودة فى متناوله وأن يقتحم بعض « الكلمات التى كانت محرمة عليه من حيث لا يدرى » .

وقد تكفلت الحياة بمنحه ما يحتاجه اليه من عون ، فهناك اسم آخر قد احتل مكان « جالا » على الصفحات الاولى من كتبه وأخذ وجه جديد يطالع القراء من بين الهوامش البيضاء الكبيرة. كذلك تكفلت الاحداث الخارجية بأن تفرض على الشاعر « الذى لا يريد أن يحلم خارج الجدران » اهتمامات أعظم وأخطر . ان الموقف القاطع الذى وقفه من بعض المسائل السياسية قد أخذ فى افساح مكانه شيئا فشيئا لمحاولة الفهم التى ستقربه بشكل أكيد من جمهور البشر . لقد انتبه ايلوار الانسان والشاعر طوال الأعوام الممتدة من ١٩٣٠ الى ١٩٣٦ الى الاحداث وما تحمله من مخاطر وتهديدات وانفعل بها وقد أخذت تتلاحق . وكأنه عندما نشر « الوردة العمومية » عام ١٩٣٤ كان يودع عهدا مضى وابتعد عنه ، وحبا قد أثمر كل ثمراته . وهذا الكتاب قد يكون أكثر دواوينه سريالية وأصفاها من حيث التعبير ، قبل أن يشرع فى نظم القصائد التى نعرفها جميعا والتى استلهمت الحوادث وحدها مباشرة .

فاذا كان فى استطاعتى مثلما يفعل نقاد التصوير أن أتحدث عن الفترة الوردية ثم الفترة الزرقاء وأن أقسم انتاج الشاعر الى مختلف الطرق التى يحتاج اليها النقاد ليشرحوا قصائده ، لكان من اللازم أن أفرد جانبا خاصا للوردة العمومية. فهذا الكتاب قد تناول من جديد أغلب المواضيع المبعثرة فى أعمال ايلوار السابقة حتى نمت وأزهرت وثبتت فى أبيات من أشد ماكتب

ايلوار تأثيرا فى النفوس • وفى هذه القصائد تلخصت ، فى شكل جمالى كامل ،خبرة لم تنقطع الحياة عن مضاعفتها أبدا • وبينما كانت الابيات فى دواوينه الاولى تنتظم فى المقاطع الغرامية وتتابعها الطويل وتمسك بالصور المشرقة التى فصلتها السعادة والثقة فى مجال النور • نرى قصائد « الوردة العمومية » جادة ومحجبة . ويتضح فيها ما يبذله الشاعر من جهود ليتذكر كل الصور التى أخذت فى الابتعـاد عنه • ثمة وجـه أحبه طويلا يتقهقر الى منطقة الظل ولكن شيئا منه قد انطبع في ذاكرة الشاعر • شيئامحسوسا سيزيد توالى السنين من حسـاسيته • لقد تشـبع الجو الروحى الذى كتب فيه قصائده الاولى بالعنف واللامبالاة • أما الآن فنلمح فيها قلقا خفيا وعذوبة مفعمة بالشفقة . وقد انطبعت على وجوه القصائد وكلماتها جميعا أحزان أيقظتها الحسرات وفرار الزمن •

ان صور الشاعر لم تفقد بالطبع مميزاتها من صدق وصواب ولكن الاضاءة التى تغمرها هى التى تغيرت .

وقصائد « الوردة العمومية » لم تعد من أغنيات الغرام ولكنها بوح الاسرار ، وكل مايقوله الشاعر يمكن أن يفسر تفسيرا دقيقا لأن كل صورة يستخدمها لها مايقـابلها من الذكريات المخلصـة الحقيقية . فهو يذكر فى البدء الأيام البعيدة التى قضاها فى مصحة جبال سويسرا يغطيها الجليد ويخطر عليها طيف أليف :

« لقد حطمت الكرة الألبية

حيث كان الزوجان العاشقان وكأنهما يحلمان وكان هذا هو الوقت الذى لم يعد ينتظر فيه شيئا من ذاكرته التى أخذت تغرز فى الرمال وهو يفكر من جديد فى محاولته القديمة فى الفرار ، وفى الفشل المحتم الخصيب :

« ما الذى أبقته الأيام من كل ما قلته عن ذاتى
لقد احتفظت بكنوز زائفة فى خزائن فارغة

وصلت بين طفولتي ومللي مركبة لا تفيد
وصلت الرحيل بأوهامي
وألعابي بالتعب
والعاصفة بقوس الليالي حيث أحياها وحيدا
وجزيرة بلا حيوانات بالحيوانات التي أحب
وامرأة مهجورة بالمرأة الجديدة على الدوام »

وعندئذ يدور حوار بين الشاعر وبين الطيف الحبيب الذي مازال يلهمه :

« وعندما لهثت الأنفاس ، منحتني الحقيقة
الحقيقة التي تعلمتها مني
الحقيقة الحزينة العذبة التي تقول
أن الحب مثل الجوع والظمأ
ولكنه لا يرتوي أبدا »

انه قد أراد عبثا أن يفقدها وان ينساها . « لقد رأيت السماء تترك الأرض ـ والأرض تعمر بنساء ورجال نائمين .. » « لقد رأيت مزولة السماء والبحر وهي تنقلب » .. « لقد رأيت امرأة تنظر الى وليدها ـ وكأنه طوبة انتزعت من السقف ـ ولدها المتقدم على الانسان »

وهو يتذكر أيام أن كان أندري بريتون يقدم الى النساء وردة وهو يرجوهن ان يتقبلنها :

لقد رأيت خير أصدقائي
يحفر في شوارع المدينة
ذات مساء في كل شوارع المدينة
نفق حزنه الطويل
كان يهدي الى

كل النسـاء
وردة تميزت
وردة من الندى
تشبه سكر الذى يعطش
وكان يرجوهن بتواضع
أن يتقبلنها

وردة تلألأت وسخفت
في يد ثقيلة
فى يد مزهرة »

ولكن هذا النقل الأمين للواقع لم يعد يرضى الشاعر فهو يقول « لن أهرع بعـــد الآن الى نجدة صور الماضى » · عليه الآن أن يهجر المجال البـاسم الذى تتوافد عليه الصور من ذات نفسها عليه كما يقول « أن يشرب اناء كبيرا من النعاس الأسود ـ حتى القطرة الأخيرة » عليه أن يغوص الى أعماق القرار ليعثر على :

هذه الأغنية التى تمسك الليل
هذه الأغنية التى تتطارش وتتعامى
وتتشابك فى ذراعها الأشباح
هذا الحب المتنكر
الذى يتخبط فى الهموم
بدموع مبتلة
هذا الحلم الممزق الحيران المتلوى السخيف
هذا الانسـجام البور
هذه العشـيرة التى تتسول .. »

أن « الوردة العمومية » ديوان لا يمكن ان نفضل احدى قصائده على الأخريات . ولكنى أريد أن أقول أن قصيدة « مايقوله الفواعل » و « لا شيء غـير أن تحيـا وترى من يحبون » من أشد

قصائد الديوان مقدرة على الهامنا ويكفى صاحبهما مجدا أنه قد نظمهما . ولابد فى يوم من الأيام أن يحفظهما كل الناس عن ظهر قلب .

ويمكننا أن نقول المثل عن معظم القصائد التى يتألف منها ديوان « العيون الخصيبة » (١٩٣٦) ويحتوى على خمسة رسوم بريشة بيكاسو تصور القصائد التى نظمها الشاعر فى ملهمته الجديدة . ويطيب للكثيرين ، بطبيعة الأمر أن يقارنوا بين هذا الكتاب وديوان « الحب الشعر » فكلاهما فى الحب ولكنهما فى الحقيقة يختلفان أشد الاختلاف . ان الحب الشعر — هذا الكتاب الذى لا ينتهى — يحمل فى طياته قلقا ينمو ويتزايد مع الاكتشافات التى ينقلها الشاعر فى قصائده . وفى هذا الكتاب يظهر بيت ايلوار المضمر الرائع :

« الأرض زرقاء مثل برتقالة »

وفى الكتاب أيضا عناد وغضب ورغبة فى التفوق على النفس تمتزج بالوله والحماس الطفولى للمرأة التى يحبها والتى ورد اسمها فى رأس الكتاب . وقد جاء فى قصيدته الأولى « الحب يختار الحب دون أن يتغير وجهه » . ولكنه فى القصيدة الأخيرة يدرك أنه يجب عليه أن يعترف بكل « الأشباح التى أخضعها للقواعد الاستثنائية » يجب أن يعترف بها فى حبيبته : « أنت التي تزولين لكى تظهرى دائما من جديد »

هذا الوجه الجديد الذى يظهر للشاعر عام ١٩٣٠ ، وجه امرأة « شاحبة ومنيرة » رسم لها بيكاسو صورة مدهشة فى ديوان « العيون الخصيبة » : وجه « نوش » التى سيجتهد ايلوار منذ الآن فى رسم ملامحها فى قصائده .

ان الطرب الكامل هو أسمى أشكال العاطفة الشعرية كما يقول بييرجان جوف ، وهو يزدهر فى هذه القصائد ازدهار الثقة

والأمان . لقـــد بلغت الجملة الشـــعرية أقصى درجات الصــفاء وأصبحت هى البساطة بعينها : « أحفر فى الصخر نجمة قوتك — الخطوط العميقة التى ستنبت منها طيبة جسدك » وهو يكتب فى احدى القصائد : « كل شىء جديد ، كل شىء مقبل » . لقــد استعاد بهجته وهو في أوج السعادة بهذه البهجة وبمقدرته فى التعبير عنها تعبيرا رائقا صافيا سيظل من ذلك ميزة ســائدة فى كل كتبه .

وقد ظهر أثر هذا المجهود فى « العيون الخصـــيبة » فقد انتفت منه الصور المجردة تقريبا وجــاءت كلماته كلها فى غاية البساطة . وهذا الكتاب يحتوى على بعض القصائد التى لحنها فرانسيس بولنك كما يحتوى على قصائد أخطر شأنا ومنها هذا البيت الذى كثر الاستشهاد به : « لقد اتخذت السعادة من الموت لافتة لها » وبعد هذا الكتاب ستتجه أعمال ايلوار كلها وجهة جديدة وتكتسب معنى جديدا أعمق وأغنى كلما ازدادت بساطة وتجاوبا مع الآلام التى أخذت تنزل بالبشر .

فى مطلع عام ١٩٣٦ وجهت الدعوة الى ايلوار بمناسبةالعرض الشامل لأعمال بيكاسو فى اسبانيا ، ليلقى هناك سلسلة من المحاضرات · وقد صاحبت احدى هذه المحاضرات قصائد لبيكاسو قدمها رامون جومث · ومن هذه الرحلة استلهم ايلوار قصيدة « أصدقاء حميمون » (فى « العيون الخصيبة ») وكان عنوانها الأول « أغنية اسبانية وقد نظمها ذات مساء على مائدة مقهى غنائى فى مدريد كان يقصده لوركا وبرجامين وألبرتى وأصدقاؤهم · وقد عاد اتصال ايلوار باسبانيا عليه بفائدة كبيرة فى القصائد التى كتبها فيما بعد والتى أملتها عليه حوادث الحرب الأهلية · وكان ايلوار حتى ذلك العهد لم ينقطع أبداعن المشاركة فى كل المناقشات التى كان يهتز لها الرأى العام · ونحن نذكر بعض الشعارات والأمثلة التى قدمها هو وأصدقاؤه للشعراء الشبان فى هذه الأيام الخالية · كانوا يقولون ان الشعر لا يجب أن يعيش معزولا عن البشر بل يجب أن يكون أوثق رباط يجمع بينهم · وعندما عاد ايلوار من اسبانيا وأصدر ديوان « العيون الخصيبة » عام ١٩٣٦ اكتسب شعره هذا الطابع المؤثر الحماسى وازدادت قصائده اقترابا من مشاغلنا كما ازددنا بدورنا تقديرا لها · وكان الشعراء يعلنون بثقة ، كانت موضع المحاسبة فيما بعد ، انهم لا يريدون التغاضى عن نشاط سائر البشر وفى نفس السنة كتب ايلوار يقول :

« لقد جاء الوقت الذى أصبح فيه من حق جميع الشعراء ومن

واجبهم أن يؤكدوا انغماسهم بقوة وعمق فى حياة سائر الناس ، فى الحياة المشتركة » ٠

كان الشعراء يريدون أن يعاونوا في تشييد وبناء هذه الحياة المشتركة ٠ وكان على بول ايلوار وأصدقائه أن يؤكدوا حقوق الشعراء وواجباتهم تأكيدا رائعا ٠ وكان على الشعر فى مفهومهم ، أن يساعد البشر فى التحرر وأن يساهم في توحيدهم وحماسهم والهامهم ٠

الهامهم ؟ أجل ٠ ان ايلوار يرى أن « الشاعر هو الذى يلهم أكثر مما هو الذى يلهم » ٠ وقد كتب أيضا فى «البداهة الشعرية»: « وللقصائد دائما هوامش بيضاء كبيرة ، هوامش منالصمت تحترق فيها الذاكرة المتقدة لتعيد خلق هذيان بلا ماض » ومن ذلك ندرك كيف أخذ بول ايلوار يبحث بحثا عميقا في ذاكرتنا المشتركة عن مصدر هذا الالهام الذى مازال يغدق عليه وتنعكس فى كل ما يكتبه المشاغل التى تلاحقنا من كل جانب ٠ واننا نلمح خلف واجهة قصائده ووراء صورها الشفافة شكل أمنياتنا وظلال خواطرنا وأفكارنا ومطالبنا العادلة ٠

ان بول ايلوار شاعر لا يطلب من قرائه الا أن يكونوا ملهمين مثله ، ليلهموا بدورهم رجالا غيرهم حتى يصل الالهام الى أشد الناس اعراضا عنه ٠ وان الزمن الذى نعيش فيه يذخر بمواضيع الالهام لمثل هذا الشاعر ولحساسيته المرهفة ٠ ان شرورا لاعداد لها تعيث فى عالمنا القديم فسادا وقد تصلحه فيما بعد ، ولكن « ندى الدم » الذى يتحدث عنه الشاعر بييرجان جوف لا يزال يتساقط ٠ وان فرسان رؤيا يوحنا الاربعة قد عاودوا مسيرتهم وهم يهدمون فى غمضة عين ما شيده الرجال المسالمون على مدى القرون ٠ ولكن الثورات والحروب التى تثيرها أبطأ فى مفعولها من أعمال الهدم ، وتسبقها وتصاحبها اضطرابات عميقة

يصعب تحليلها وتتولد من ظروف لا يمكن تحديدها تماما ـ وقد نرى على سطح الماء دوامة لم يكن هناك ما يشير الى ظهورها · وقد تكون أعماق البحار تمزقت · ونحن هنا على السطح لا نرى الا صورة جافة لهذا التمزق البعيد الذى تولد منه هذا الطفح · والأمر بالمثل فى كل هذه الأحداث التى تنطلق من حولنا ويستحيل علينا فى كثير من الاحيان أن نكتشف أسبابها · لا شك أن هناك واقعة وقعت يستعصى ادراكها على المعاصرين ، مغامرة روحية مجهولة ، فكرة متواضعة · شقت طريقها رغم كل العقبات والعراقيل وهرعت الينا، عبر مادة التاريخ المتماسكة ، وقد ربت وتضاعفت بشبيهاتها من الأفكار الاخرى ثم انفجرت فجأة فتركتنا مذهولين عاجزين عن ادراك هذا الذى حدث · ان على الشاعر أن يحس بأعمق مايستطيع اقتراب هذه الموجة التى تصعد دامية من أعماق الزمن · ويصفها لنا وهى تجتاح العالم ، قبل أن يلحظ العالم قدومها · وسيصفها الشاعر ويصورها فى قسوتها التى لا ترحم ·

ان ايلوار فى « المجرى الطبيعى » الصادر عام ١٩٣٨ يقدم لنا لأول مرة شهادة مرئية لمثل هذا الاهتمام · وهو يطلق صيحة الانذار « ·· فى هذا الزمن الأصم عن النداءات الأليمة ··· فى هذا الزمن الذى يدفن نفسه تحت أنقاض الحرية » (أندرى بريتون فى مقدمة الكتاب) · ويقدم لنا ايلوار بضع قصائد نطالع فيها هذه الاهتمامات كما نطالع أوثق خواطره وكأننا نقرأ فى « كتاب مفتوح » ·

ولا يعنينا هنا أن نمتدح أو نثنى على شعر المناسبات · ان الاحداث تعرض للشاعر وعليه أن يعرف كيف يستخلص كنهها وأن يستشف ما سوف تثيره من الاصداء · ولم يكن القدماء على خطأ عندما سووا بين الشاعر والعراف : أن يطالع الغيب ، أن يرى بل أن يتكهن ، أليس هذا هو دور الشاعر ؟ ولكن هناك من يرسمون

الحدود لامكانياتهم ولا تواتيهم الشجاعة للمضى الى آخر ما تتيحه وسائلهم . انهم يقدرون الماضى فوق قـــدره ولا يتجرأون على أن يحفظوا من هذا الماضى ما يلزمهم بالكاد . أما ايلوار فهو يقول فى « الأغنية الكاملة » : « فلننظر من المستقبل ـ لحظةقصيرة الى الماضى» ويقول فى ديوان « الشعر والحقيقة ١٩٤٢ » : « من بعيد الى بعيد يأتينا أنباء الماضى » . من بعيد الى بعيـــد ولا أكثر . ان التغنى بالعصر الذهبى وبالفردوس المفقود قد أنتج قصـــائد جميلة ولكنه لا يستطيع اليوم أن يسير فى الناس حماسا عميقا . ولا يمكنه الا أن يجعل البعض يأسفون على زمن مضى قد كانوا يحبون أن يعيشوا فيه لأنهم يفتقدون الجسارة وجرأة الرغبة فى أن يعيشوا فى عالم الغد . وهناك دائما كآبة وشعور بالنقص يمتزج بعبـــادة الماضى وبحب الاطلال وأشكال التفكير البائدة . ان كثيرا من القصائد ـ ومن القصائد التى تكتب اليوم وهو أخطر ما فى الامر ـ قد تشرب بهذا الاحساس . انها قواقع تحنطت وأنسيت فوق الشاطىء بعد أن انحسر البـــحر عنه فاذا أصخنا اليهـــا سمعنا هدير عالم بعيد ينسحب مبتعدا عنا . وهى قصائد يحاول الزمن الغابر أن يجـــد فيها ملاذه وأن يعيش فى كنفها فلا نســـمع فيهـــا الا أصداء بينما ترتفع من حولنا صيحات الألم والأمل ونحن لا نريد أن نسمعهـــا فى بعض الاحيان .

وفى مواجهة هذا الشـــعر المصنوع ، هناك شعر يريد أن يصنع ، وفى مواجهة هذه الطبيعة الصامتة مهما فتنتنا بحزنها هناك شعر نابض حى . ولكى يصل الى هذه النتيجة ينبغى على الشاعر أن يميز فى كل مايحيط به مايعود الى الماضى وماينفع فى بناء العالم الجديد وولادته الوشـــيكة . وعليه ألا يســـتخدم مايعود الى الماضى وينتمى اليه ، بل عليه أن يتخلص منه وينبذه مهما كلفه ذلك من مجهود فهناك عقول كثيرة لا تعرف أين مصلحتها الحقيقية تريد أن تبقى

على هذا الماضى مهما كان الثمن • ان كل شيء حي يكمن في الماضى ـ وفينا جميعا ـ انما هو ملك المستقبل ويجب أن يكرس لهذا المستقبل يجب أن نعرف كيف نطالع سعادة لا حدود لها ـ فى خطوط الحاضر البسيطة » كما يقول ايلوار • ان أحلام الشاعر ليست في تحسره على الزمان البائد ولكنها انطلاق الى الأيام التى سنحياها • وانما يتمنى الشاعر أن تنهدم كل الأبراج العاجية منذ اليوم ، ولكنه يطالب قبل كل شيء أن يكون الشعر الذى هو صوت الوطن وكلمته الصميمة والمعبر عن روحه ، حرا اذا أردنا له أن يكون أصيلا •

يقول بودلير « ان الشعر الحق هو انكار الظلم » • فعلى الشاعر قبل كل شيء أن يكون رجلا عادلا ، والرجل العادل لا يكتفى برؤية الظلم والتألم منه ، بل يعاون العاملين على القضاء عليه • ان القصائد التى ظلت تنبض بالحياة خلال القرون هى القصائد التى أوحى بها حب العدالة • وليس من المسموح طبعا للشاعر أن يعبر فى كل وقت عن هذا الحب وهذا « الحنين الى العدالة » • ولكن أمل العالم كله قد لاذ بعزلة الشاعر ليحفظه نقيا لا يمسه السوء • ان ايلوار يقول فى القصيدة الأولى من ديوانه » المجرى الطبيعى » •

« سوف تتسع السماء
لقد اكتفينا ولم نعد نطيق
أن نسكن فى أنقاض النوم
وفى الظل الأسفل من الراحة »

وهو يعلم أن هناك تعويضا أسمى سيمنح للذين لم يشكوا لحظة فى مجىء حكم العدالة :

« سوف نرسو جميعا على شاطىء ذاكرة جديدة
سوف نتحدث معا بلغة محسوسة »

« على الانسان وقد تخلص من ماضيه السخيف
أن يطالع أخاه بوجه مشابه
ويمنح العقل جناحا شرودا »

ان هذا الشعر الذى يعلن للبشر تحررهم القريب يرفع صوته بعنف ضد الذين يحاولون أن يقيموا الظلم على الأرض :

« أنظروا الى بناة الأنقاض وهم يعملون
انهم أثرياء ومثابرون ومنظمون وأغبياء

ويبذلون وسعهم لكيلا يعيش غيرهم على الارض
يقفون على حافة البشر ويردمونهم بالأقذار »

والحقيقة ان الحاجة الماسة التى يحسها ايلوار كما يحسها كل شاعر أصيل ، لمشاركة البشر فى آلامهم وآمالهم وتلهمه السخط والرحمة قد ظهرت فى كل أعماله . ولكنها فى الكتب التى سبقت « المجرى الطبيعى » كانت تأتى مثل الانفجارات من هنا وهناك أما بعد هذا الكتاب فقد أصبحت جزءا لا يتجزأ من شعره وعنصرا من أهم عناصره . فهى حافز خصيب لايلوار . وهو يستطيع أن يكتب فى ديوانه « الأغنية الكاملة » يحملنى الضوء والضمير من الأسرار والتعاسات بقدر ما يحملنى الليل والأحلام » وان هذا الانتقال من الحلم الى الحقيقة لم يحدث عند ايلوار أى انفصام كما هو يؤكد لنا . فكل شىء واقع . وهو قد نظم قصائد هذا الديوان فى وضح النهار وتمام الوعى ، فذخرت بالصور الباسمة التى استلهمها من حديقة سان جرمان حيث كان يزرع الأزهار البرية . والديوان يحتوى أيضا على قصائد فاجعة تمس شغافنا ببساطتها :

« يا اخوتى ان أمنياتنا فى الليل

أقل اندفاعا من هذه النجمة الحمراء
التى تنتزع الأرض من البشاعة ... »

وبعد شهور قليلة من صدور «الاغنية الكاملة» تم تجنيد بول ايلوار ، فعاش فى وسط معسكر يعمل ليلا ونهارا فى محطة تحيط بها على مدى البصر آفاق سولونيا الحزينة ، وتعبر بهـا القطارات بلا انقطاع . وهو يقرأ فى أوقات فراغه وما أقلهـا ، شـعراء عصر النهضة المنسيين وقد عادت قصائدهم الى الرواج فى الأيام الأولى من الصلح . والليل فى الخارج يشتعل فيه موقد قطار ، وهناك المطر والبرد . ويعود الى موقعه عند مطلع النهـار . وقد وضـع « صورة نوش على المائدة » كما جـاء فى احدى قصـائده . وعندما يأتى الى باريس ليقضى فيها يوما وليلة لا يأخذ فى الشكوى من مرارة الزمن ، ولكنه يحدثنا عن الحيوانات التى تعيش فى خرائب السكك الحديدية : الفراشات الصفراء والسحالى والعرس والنمس ، ويقص علينا كيف شاهد فى يوم من الأيام على منحدر يشبه ما رسمه ماكسى ارنست فى «انتصار الحب» فرسة النبى كبيرة هائلة . (وقد يقوم البعض بجرد شامل لكل الحيوانات التى ورد ذكرها فى أعمال بول ايلوار منذ أن كتب « الحيوانات وناسـهم » الى القصـائد التى نظمها على هوامش مجلد ضخم لبيفون رسم صوره بابلوبيكاسو) ويتسـلم ايلوار ملازم المجلة التى أسـسها مع جورج هونى « أداة النطق» وهى أهم مجلة أدبية ظهرت فى الحرب . ثم يعود الى سولونيا وهو قليل النظم فى هذه الأيام . ويصدر فى عام ١٩٤١ سبع قصائد بعنوان « على المنحدرات السفلى » تؤلف نشيدا رائعا لعهدنا هذا الذى تخترقه الأحزان والأمل . وقد قدم جان بولان لهذه القصائد وكتب يقول ::

« ان بول ايلوار مازال محتفظا بصـبره الوهـاج . وبعض الناس ينهش من حول الشعر كل ما كان يتـكون منه الشعر فى

الماضي ولـكن ذلك لا يرهب ايلوار فهو لا يخاف من كتابة الحكم والأقاصيص والألغاز والأمثال » .

« أنا لا أستطيع أن أقرأه دون أن أصدقه في كل ما يقول »

ويدعونا جان بولان الى مطالعة قصائد ايلوار وكأنها قصص . والحقيقة انها قصص كان ينشرها بول ايلوار وكانت تأتينا من بعيد ، كأنها تأتينا من سجن أو من أرض محرمة علينا .

لقد نظم القديس يوحنا الصليبي أكثر قصائده اشراقا في « ليلته المظلمة » وكذلك فعل ايلوار في قلب الظلمات المحيطة بنا . وهو لم ييأس أبدا من خلاص بلادنا الادبي والروحي ، ان تعاسات البشر تزيده ثقة ويقينا في خلاصهم .

وهو ينتظر بفروغ الصبر أن يتحقق :

« حلم الأبرياء الوحيد
همس واحد صباح واحد
والمواسم في ائتلاف واحد
تلون بالجليد وبالنار
افواجا تجمعت أخيرا »

وهذه القصائد السبع قد ضمها ايلوار الى دائرة « الكتب المفتوحة » (لقد صدر مجلدان فقط من هذه الكتب ، أما الثالث وهو أهمها جميعا فسوف يضم القصائد التي جاءت في « الشعر والحقيقة ١٩٤٢ ») .

ان ايلوار الانسان موجود بكل كيانه في هذه الكتب التي تقيم الدليل على تجدده التام ، كما تقيم الدليل رغم قسوة هذه الأيام ومصاعب التعبير التي تغلب عليها ، على أنه ليس هناك أي شك في مغزاها الراهن وفي مداها المرتقب .

ان المجلد الأول والثانى من الكتاب المفتوح عبارة عن مذكرات خاصة وعن « تعرية القلب » . ان كثيرا من القصائد السابقة التى اشتهرت بصعوبتها لتتضح لنا فى ضوء هذا الديوان . لم نكن نعرف كيف نقرؤها فاذا كانت هذه القصائد لاتزال غامضة بالنسبة لبعضنا فان غموضها أشبه مايكون بليلة تتخاطفها البروق فنتمكن فى ضوئها من أن نرى رؤية مختلسة كثيرا من الأشياء التى لم نكن نراها فى وضح النهار . ومما لا ريب فيه أن لغة ايلوار قد طرأت عليها تحولات كبيرة . فقد خفت رنين بعض الأبيات وتخلل كتبه الأخيرة تناسق وانسجام فى الأنغام أشد عمقا . ان ايلوار يمزج فى كتبه ، على هوى المصادفة ، بين أشعار الغرام وقصائد المناسبات.

لقد نظم ايلوار « كتابه المفتوح » فى غرفته الصغيرة التى تغطى جدرانها الكتب فى الحى الشعبى الذى يقطنه فى مدينة باريس التى لحقت بها الاهانة والتى غنى ريمبو فيما مضى ببؤسها وكرامتها . لقد نقل بحمية وحماس تاريخ بلادنا فى هذه القصائد الرائقة . وأيلوار يستطيع أن يقول مثلما قال أراجون : « وطنى هو الجوع والشقاء والحب » ، فقد استلهم هذه القصائد من الجوع والشقاء والحب ولايدهشنا ما نلمحه من قرابة بينها وبين اشعار الشاعر الباريسى فرانسوافيون حيث يمتزج الحنان الهائل بسخرية قوامها الرحمة . وهى قصائد أوحى بها زمن كانت فيه « حتى الكلاب تعيسة » :

« ياأيها الجوعى والمتسولون واللصوص ان طريقكم متسع باتساع العالم وأنتم تتوهون وتنفقون فى السجون »

(الكتاب المفتوح ج ١)

« نصيبهم من الدنيا الأوساخ والقبح والعار نصيبهم البرد

والجوع والعطش والحقد نصيبهم من الملبس ما يحتاجه الميت والحرية شر المقادير لهم »

(الكتاب المفتوح ج ٢٠)

« هذا الشريد المحتضر لم يمضغ أبدا الا التراب ولم يرفع رأسه أبدا شيخوخة الطرقات تشدو وتشبع الفقراء موتا »

(الكتاب المفتوح ج ٢٠)

كل شيء فى هذا العالم الحزين يبدو كئيبا مهدما :
« لا أنة من بعد ولاضحكة تساقطت الأغنية الأخيرة على الريف المشوه الأسود »

(الكتاب المفتوح ج ٢٠)

وقد ضمن ايلوار هذه الكتب بعض قصائد الحب ، تستضىء الوانها بشعاع القصائد الأخرى التى تحيط بها . وقد رسمت لها فالنتين هوجو التى ارتبطت حياتها وأعمالها ارتباطا وثيقا بالنشاط السريالى ، عقودا مزهرة باسمة تتشابك فيها الوجوه والرياحين والورود .

ودواوين ايلوار دائما متعددة الجوانب ولا يستطيع أبدا أن يمنع نفسه من المزج بين موضوع الحب ومواضيع أخرى قد تبدو متنافرة معه . وانه ليفعل ذلك فى كل قصيدة من قصائده فنلمح فيها دائما حاجته فى الخلط بين الواقع والخيال . ولاشك أن موضوع البؤس والشقاء يفرض نفسه علينا بقوة فى هذه الأيام . وليس فى امكان ايلوار الا أن يرى وان يسمع وان يكتب بل وأن يصيح ويصرخ بكل ماتلهمه المشاهد الأليمة الدامية من شعر ، وهو القائل « أنا وسعت حدود الصرخات »

« وصرخت آلامى
حتى يزأر معى الصم

والأسرى الذين يهينهم النهار »
(الشعر والحقيقة ١٩٤٢)

« كان الفقراء يلتقطون خبزهم فى المجرى
وكنت أسمع حديثا يجرى بلطف وعلى حذر
عن أمل قديم كبير كانفتاح اليد »
(الشعر والحقيقة ١٩٤٢)

وفي المجلد الأول من « الكتاب المفتوح » أعاد ايلوار نشر قصيدة كتبها عام ١٩١٨ فى « قصائد من أجل السلام » ومطلعها : « أشعلت نارا عندما تخلت عنى زرقة السماء » ولم يكن ذلك عبثا ، فان الظروف تتشابه . ولكننى أرى أن هذا التقارب بين قصيدته القديمة وقصائده الجديدة يتيح لنا الفرصة لنرى الوحدة العميقة الوثيقة التى تربط بين أعماله . ليس هناك انفصـــام . خلاصة الأمر ، منذ « الواجب والقلق » وحتى « الكتاب المفتوح » بجزئيه ، أن ايلوار يقول ، وان تنوع القول ، فى موضوع واحد هو « انكار الظلم » كما قال بودلير . فاذا كان فى استطاعتنا وصف شعر بأنه أخلاقى ، دون أن يحدث التباس أو بلبلة ، لوجب علينا أن نهب هذا الوصف لشعر أيلوار قبل كل شاعر آخر . ان توقان ايلوار الى الجمال والخير قد ألهمه كثيرا من القصائد التى تسرع البعض ونعتها بالمثيرة والهدامة بينما هى لا تعدو أن تكون سوى صيحة الســـخط أمام القبح والغباء . ان أيلوار عنـــدما قال فى قصيدة « الأطفال الأربعة » (١٩٢١) « ان اليتيم ــ قد تغطى الثدى الذى يرضعه بالسواد ــ ولن يغسله » وعندما نظم قصيدة جرنيقة وعندما قال فى قصيدته الشهيرة « نقد الشعر » : « ليكن معلوما أنى أكره حكم البرجوازيين » ، ان ايلوار فى هذا كله وفى كتبه كلها قد تميز بتصميمه على أن يقف بكل الوسائل التى يملكها الشعراء الآن ، ضد مزاعم كل « بناة الأنقاض » .

وقد شرح ايلوار موقفه فى قصيدة « حقوق الفقير وواجباته » (المجرى الطبيعى) وفى لهجة أعنف من لهجة قصائده الأخرى . ومن الواضح أنه يستخدم دائما فى كتابة مثل هذه الأشعار لغة أعنف بل وأشرس تمتلىء بالعبارات المحددة والصور الصريحة الخالية من النتوء . واننا نلاحظ فى كل هذه القصائد « الهدامة » واقعية في التفاصيل قد نفاجأ بها فى مبدأ الأمر ولكننا نرتاح اليها لقوة النغم المستمر طوال القصيدة . ولا يحدث لايلوار أبدا أن يرفع صوته بطريقة المدعين لكى يظن أن شعره حكم القضاء . هذا شأن الآخرين ، أما هو فيكتفى بأن يقيم لنا الدليل على أن الواجبات الاجتماعية يمكن أن تقترن عنده وبيسر شديد ، مع اهتمامه الدائم بأن يظل شاعرا خالصا .

وان اهتمامه هذا قد ظل قويا مثلما كان أيام أن كتب « خوافى حياة » وليس فى الأدب الفرنسى كله شاعر أخلص لقواعد حرفة الشعر التى يتحدث عنها فينى فى مذكراته مثلما أخلص بول ايلوار . فلو كان غيره يمتلك مايمتلكه من المواهب لاستفاد بها وتلاعب برهافة احساسه باللون والكمال التشكيلى والقيمة الصحيحة للكلمات ، ليفوز بعدد أكبر من القراء لايتشددون فيما يطلبون . ولكن ايلوار قد آثر أن يتقبل النصائح التى أسداها للشعراء بودلير ومالارميه . فالشعر ليس تدريبا روحيا يمكن للشاعر أن يمارسه فى أوقات الفراغ : أنه نشاط يستوعب كل ضروب النشاط الأخرى . ولا شك أن الشعر يولد ، عند صاحب « الكتاب المفتوح » ، من المواجهة والمعارضة بين أمانى البشر كافة والعالم المحيط الذى يناصبهم العداء ولا يكترث بهم هو شاعر يكتشف باستمرار علاقات جديدة بين الانسان والعالم ، فيهتدى فى طويته الى قوانين كان يجهلها أو كان قد أنسيها ، وهو بذلك يعرف أن الشعر ليس مرتبطا بحالة معينة من حالات الوعى والادراك

أو بالقدرة المتباينة على المزج بين الصور . ولكن الشعر يستطيع أن يتبدى فى كل مكان وأن ينبع من أبسط الكلمات حيث يكمن كما تكمن نار السماء فى حجارة الطريق . وعلى الشاعر ان يعمل على انبثاق هذه النار .

يقول بول أيلوار فى ديوان « المجرى الطبيعى »

« ألف صورة منى تضاعف ضوئى » وهنا يتماثل الشاعر والكون ، ويضيف ايلوار فى نفس الديوان : « وهو العصفور وهو الطفل وهو الصخر وهي السهول ـ تمتزج بنا . وفى هذه القصيدة والقصائد الأخرى من « المجرى الطبيعى » يؤكد ايلوار رأيه الذى قال فى معرض الحديث عن ماكس ارنست : « ان كل مايستطيع العقل البشرى أن يتصوره ويخلقه انما ينبع من نفس المصدر وأنه من نفس المادة التى يتألف منها لحم الانسان ودمه . والعالم المحيط به » . ولا يتردد بول ايلوار فى التعبير عن هذا التماثل بين الشاعر والعالم بأشكال ملموسة ، ويلجأ الى تحولات جديدة حين يقول :

« كنت انسانا وكنت صخرة
« كنت صخرة في الأنسان وانسانا فى الصخرة
كنت عصفورا فى الهواء وفضاءا فى العصفور
كنت زهرة فى البرد ونهرا فى الشمس
وجوهرة فى الندى
أخويا وحدى ، أخويا حر »

وتتكون هذه القصيدة وعنوانها «ساعاتى» من اثنتى عشرةرباعية ويتحدث فيها ايلوار عن ساعات النهار ، كل ساعة فى رباعية ، بصورها المختلفة وفقا لاقترابها أو ابتعادها من الليل ، وباستعارات لطيفة وايحاء بمرور السنوات فى حياة الانسان . وقد ألمت هذه الرباعيات المعدودة بنظام فلسفى بأكمله أو بالأحرى بنظام كونى وقد

يكون من المفيد أن نخضع معظم قصائد ايلوار لفحص مماثل، حتى نعثر على الصلات التى تربط بينها وبين شعر الشعراء الكونيين القدامى، وان كان بول ايلوار نفسه يجتهد . بدون أن يقصد فى اغلب الاحيان . فى اخفاء هذه الصلات . لأنه يخشى أكثر ما يخشى أن يظن بشعره خضوع للجبر والغيبيات . ان الشاعر يريد أن يعبر عن فكرته الى آخر مداها . ومن هذا الجهد تتولد دائما صورة شعرية تضيء لنا وجه صاحبها الانسان فى حقيقته ، من خلال ذاكرة الكون المشتركة التى تحدث عنها لوثريامون .

وعلى الشاعر لكى يصل الى هذه النتيجة أن يخضع نفسه لنظام صارم دقيق . وقد كان في مقدور بول ايلوار وقد انقادت له كل الامكانيات أن يتساهل وان يغفر له القراء هذا التساهل ، ولكنه قد آثر أن يطوع نفسه لمجهود لا بد أن يبذله باستمرار حتى يتجدد وحتى يضم الى مفرداته هذه الكلمات الجديدة التى ظن فى يوم من الأيام أن بعضها محرم عليه . وقد سبق لبول ايلوار أن نظم قصيدة اهداها الى اندرى بريتون ولم يستخدم فيها غير الكلمات التى كان قد أهملها حتى هذا الوقت وكان يجهل محتواها الشعرى . أن اندرى جيد يقول : ان كلمات قصائده تحيط بها هالة مشعة وهذا صحيح ، انها الهالة التى يضفيها ايلوار على كلمات الحياة اليومية حيث لم يكن هناك من يتبين قيمتها .

ولا يمكن لشعر قد بنى على هذا الأساس ، ووجه على علم ودراية نحو التعبير عن فكرة واثقة من نفسها كل الثقة ، الا أن يؤدى الى تأكيدها تأكيدا لا يقبل النزاع .

وليس للشاعر الا فكرة واحدة يكررها دائما أبدا ولا يمل من تكرارها . والشاعر يؤكد أن ما يقوله هو الحقيقة وأن كل صوره حقة وان فى استطاعته التدليل على ذلك . ويكفى أن نتصفح

كتب ايلوار الأخيرة لنقتنع : انها تزخــر بالتأكيدات • وهى فى معظم الأحيان جمل صغيرة وحكم قصيرة لا تزيد عن الشطرين من نفس الوزن غالبا وسهلة للحفظ تنبثق فجأة من أعمـــاق القصيدة فهى تلخص هــذه القصـــيدة أو هى فى الغالب العبرة منها . « ياماضى وياحاضرى ــ لم نعد منكما نخاف » ــ « من لا يريد أن يموت يجن • من يرى نفسه ميتا يتعزى » ــ « أيها الهائم يجب أن تغطى آثار أقدامك بعناية ــ لكيلا تزول » •

لقد عرضنا عرضــا موجزا لأهم القسـمات فى شعر ايلوار ومسار تطوره . ومازال أمامنا الكثير مما يجب قوله فى هذا الشعر فاذا ماقمنا بدراسة أكثر تفصيلا لهذا الفن الذى يتميز به صاحبه لكان علينا أن نتحدث عن البناء الهيكلى للجملة عند ايلوار وعن تأليفه وعن طبيعة الصور التى يستخدمها وعن جرأته فى كتابة النثر . ولكان علينا أن ندلى بمعلومات أوفر عن حياته الشخصية مثل أمسياته فى « البيت الرمادى » فى سان جرمان حيث كان يحلو له أن يقرأ لأصدقائه قصـــائد ماكس جاكوب وجارى وكرو وسان بول رو وجيوم أبولينير وكان يحــلو له أن يقرأ لهم على الأخص قصيدة « الشـــقراء الجميلة » التى لا يمكن أن نطالعها اليوم دون سخرية :

« لأن هناك أشياء كثيرة لا أجرؤ أن أقولها لكم

أشياء كثيرة لن تدعونى لأقولها . . »

وكان علينا أيضا أن نتأنى فى رسمنا لوجه هذا الشاعر الذى تمثل حياته وعمله قدوة للكتاب الشبان وتدعوهم الى الأمل والثقة بالانسـان دعوة ملحة صابرة . ونحن نستطيع أن نلمح قســمات هذا الوجه كلما نظرنا فى مرآة كتبه السحرية : ان قسماته مازالت تحتفظ بشبابها ، الشباب الذى لا يستبدله الشعراء أبدا ولا حتى

بالوقار الذى يشوههم في أغلب الأحيان أكثر مما يغنيهم . ويظل ايلوار بالنسبة لكثير منا ، كما تريده صداقتنا ، وكما كان دائما : رجلا يعرف كيف يتطرف وكيف يغضب ولكنه لا ينسى أبدا أن الطيبة فى بساطتها أنفع وأجدى .

ويعيش بول ايلوار منذ سنوات عديدة فى باريس حيث يحجب نشاطه عنا الضباب الذى يلف العاصمة . ولابد عندما أذكر حياته التى تساير حياة فرنسا الروحية ، أن أذكر رسامى القرن الخامس عشر الذين أصروا ، كما يصر اليوم ، على البقاء فى باريس بينما لم تعد باريس الا عاصمة الأقاليم المحتلة . كل شيء عندئذ كان قد فقد ، ماعدا الأمل ! وعن هذا الأمل يحدثنا صاحب الكتاب المفتوح ، تحت نفس السماء التى تظلل أراجون فى ديوان « ما يمزق القلب » . هذان الشاعران وغيرهما ، مثل الرسام الفرنسى القديم ، قد ظلوا معنا وبيننا ، ولم يكونوا فى يوم من الأيام أقرب منا وأدنى . وهم يكتبون لكى يجيء حكم العدالة ــ هذه العدالة التى يحق للشعراء أن يخلطوا بينها وبين الشعر والجمال . ومن خير مايدعونا الى الأمل هذا الاخاء والانسجام الأخوى بين الشعراء الذين يمنحون الشعر فى هذه الأيام اشراقه وحيويته المشعة ، ويعدون أرض الوطن ليخصب فيها شعر الغد . والمعجزة كما يقول بول ايلوار :

المعجزة هى أن ندفع هذا الحائط دفعة خفيفة .
هى أن نتمكن من نفض هذا التراب .
هى أن نكون متحدين .

لويس باروث

يناير ١٩٤٤

لقد أثرى انتاج بول ايلوار منذ التحرير بعدة دواوين جاءت كلها على نفس المستوى من القوة والكثافة • ولكن اذا كانت مصادر الهامه قد ظلت هي هي ـ الحب والموت الموضوعين المتبادلين باستمرار والممتزجين دائما بتمجيد أرفع الفضـــائل البشرية ـ فان لغته في التعبير قد ازدادت رصانة • كنا اذا فتحنا كتبه الأولى نستمع الى نبرة السعادة المتبادلة أما اليوم فيصـــدر من بول ايلوار صـــوت واحد عميق يضفي على صوره المتـــجددة دائما ، نغمة أشد أسرا للنفوس • ومن اليسير علينـــا أن نتبين أسباب ذلك • ان وجود الشاعر وشعره لا ينفصلان وانما يؤلفان شيئا واحدا • ان الحادث الأليم الذي اضطربت له حياته الخاصة قد تجاوب صداه في اشعاره ، واتضح لنا على ضوئه أكثر مما اتضح لنا في أي وقت مضى ، التطابق القائم بين حياة الشاعر وشعره • ان الكلمات التي يستخدمها كل يوم هي بعينها كلمات قصائده • ومن هنا اكتسب انتاج الشاعر طابعه الأصيل ، ووجب علينا أن نؤمن بما يقول ما دامت حياته منعكسة في أشعاره ، واثقة مطمئنة بالأمس • فاجعة فادحة اليوم ولكنها لاتزال تزخر بالأمل • حياة هي جهد متصل يصبو الشاعر به الى الكمال الأخـــلاقي والعقلي ويشهدنا عليه بقصيدة من أوفى ما نظمه : « شعر بلا انقطاع » •

وإذا نحن أعدنا الاطـلاع على دواوين الشاعر ، في تتابعهـــا

الزمنى ، لاستولت علينا الدهشة من التشابه بين هذه القصيدة « والقصائد السياسية » التى أصدرها أخيرا ـ وبين الكتيبات الشعرية الأولى التى نشرت له عام ١٩١٧ · ولكن قصائد « الواجب والقلق » « والموت من ألا تموت » كانت غناء البراءة وقد حلت محلها الآن أغاني الخبرة ـ خبرة دفع الشاعر ثمنها غاليا ، لم تفقد شعره نضارة قصائده الأولى وصفاءها الباسم ولكنها أضفت عليه رنة الأسى العميق تنداح أمواجه من حولنا وتنتشر الى مالا نهاية · اننا نشهد الآن مواجهة بين رجل لم ترفق به الحياة ولم تجنبه شيئا من أهوالها وبين أحلام شبابه وهو شباب لايزال الى اليوم سليما عفيا ، مواجهة بين واقع المعيشة اليومى وعالم داخلى كثيرا ما يلجأ اليه الشعراء ليتجاهلوا الواقع المحيط بهم · وقد شرع ايلوار فى نظم هذه القصيدة فى فترة كانت من أنشط فترات حياته العامة استهل بها رحلاته الطويلة الودية فطاف باليونان ويوغسلافيا وبولاندا وتشيكوسلوفاكيا وايطاليا سفيرا للشعر الجديد يحمل الى كل مكان آراءه الخيرة · وأتم قصيدته خلال طوافه فى صيف عام ١٩٤٥ ·

يمكن أن نعتبر « شعر بلا انقطاع » دراما غنائية ويمكن أن نرى فيها المحصلة الشعرية لأعماله ، قمة يشرف منها على أعماله أو ملخصا لها · وثمة أوجه شبه ، من حيث الشكل ومن حيث الدعوة المنكررة الملحة الى أن نرتفع « درجة بلا انتهاء » ، ومن حيث سرعة التصاعد والتجلى ، بين هذا الكتاب وبين المؤلفات الصوفية التى ضمنها أصحابها رؤياهم لواقع جاء مشوها فى كثير من الأحيان · ولكننا هنا أمام عقل واضح تمام الوضوح لا يتعسر علينا فى شىء ان تستبين خط سيره ، هذا العقل هو الذى يوجه ويقود ، فوق حشد من الصور تتناول العالم المضطرب والذكريات القديمة والأشياء التى ما زالت تغطيها بصمات الانسان ، انفجار الشعر وانتشاره فى الذاكرة التى يشترك فيها كل البشر · وتسترشد

القصيدة كلها بقدرة فائقة على استخدام الكلمات السحرية تنمو من مقطع الى مقطع لتزدهر أخيرا فى غناء انسانى مفعم بالثقة والحب • وفى ختام هذه الرحلة أو بالأحرى عندما تتم هذه المرحلة من حكاية قديمة قدم الشقاء البشرى ، يمسى العدم مقهور الدليل فى كل ما احتج به ، وما العالم الذى خلق وما العالم الذى ينبغى أن يبدع غير شيء واحد ، وقد بطلت كل التناقضات التى يعانى منها الشاعر رأمثاله ، بمختلف أشكالها • ان الصورة الشعرية لتتضمن هنا ، بما فيها من رمزية ، مفهوما فلسفيا للعالم • « والليل ينضج الثمار ـ والظهر ينضج الأقمار » لقد ظفر الشاعر بحريته التامة واستعاد بهجة يتقاسمها مع الزوجة الحبيبة التى يطابق بينها وبين العالم ، وما عاد يعيش معها الا « ليخلص للحياة » •

هذا الاخلاص للحياة يتغنى به بول ايلوار فى ديوانه « الرغبة القاسية فى البقاء » (« نحن النضارة المقبلة ») • فقد آمحت من خلفه ، كما يقول ، الأسوار والأنقاض • وكل شيء كما يقول ، يزهر وينضج « على هشيم الحياة حيث تضطجع عظامى القديمة » • ونعثر هنا على اللهجة البسيطة التى تميز أحسن قصائده التى لا يعدو فيها الشقاء أن يكون ظلا للحب والتى تستضيء أحيانا بكثير من الصور اللطيفة تشبه عودة الايام السعيدة التى ما برحت تشع وتنعكس على امتداد أعمال ايلوار • « بطانة المنظر الذى أراه ، ورقة مخضلة بالفجر » • وقد صدر هذا الكتاب مع رسوم بريشة شاجال مجنحة متشابكة ، فى نوفمبر ١٩٤٦ أى فى الشهر نفسه الذى توفيت فيه نوش ايلوار •

وكان قد كتب منذ شهور : ما زلت أرتعش من ساعة مكثت فيها وحيدا • ثم عرف الوحدة فى كل قسوتها • وبعد أن مر عام وأكثر كانت آلامه لاتزال بنفس الحدة ولكنها اختلطت شيئا فشيئا بالثقة فى الحياة ثقة لا يمكن أن تنفصل أبدا عن التجارب الجسيمة،

وعندئذ حاول أن يشرح لنا ألمه أمام هـــذه الوفاة التى حملته على الاحساس بأنه كان « ضحية ظلم » · « حينما لم يبق فى أعماقه غير رؤيا زوجته الميتة ، اهتز بثورة عارمة » ، وكانت سبع عشرة سنة تفصل هذا الصباح الحزين فى شهر نوفمبر من الأيام السعيدة التى تم فيها تعارفهما والتى بدأت قصتها ، لمن يحسن قراءة القصائد، منذ الصفحات الأولى « الوردة العمومية » حوارا غراميا تلألأت من خلاله الصور ·

وفي يونيه ١٩٤٧ أصدر الشاعر ديوان شعر تزينه صـــور فوتوغرافية رائعة التقطها مان راى ودورا مآر · وكانت قصـــائد الديوان كلها قد نظمت لذكرى نوش أو بالأحرى لتمجيد صورتها التى مازالت حاضرة فى وجدانه · وقد صدر الديوان باسم مستعار هو « ديدبيه ديروش » · ولكن الفتنة الأخاذة المنبعثة من صفحات الديوان قد مكنت القراء بسرعة من التعرف على المؤلف · كان هناك ماهو أكثر من صيحات النمر ، وله حمية وحماسة ترد الى الحياة هـــذا الظل الصغير الذى يرتبـــط بظله · ويستهل ايلوار ديوان « الزمن يفيض » بعدة قصائد كتبهـــا قبل وفاة نوش ولم يكن قد نشرها · ومنها قصيدة بتاريخ ٢٧ نوفمبر وهى الليلة التى سبقت وفاة أليفته ـ يقول فيها : ولقد منحت التى تضيئنى شكلها ودفئها ودورها الخالد » ·

وفجأة ، أطبقت الظلمات · وقد حضر الموت على غير انتظار فوضع حـــدا عنيفا لزمن لم يكن الحب فيه غير اسم من أســـماء الشعر · « كان سحرا فى ذاتى ، سبعة عشر عاما تزداد جلاء على الدوام حتى أدلج المـــوت فى نفسى وكأنه يدلج فى طاحونة · وبلغ الشاعر حدود تعاسته ونكبته وكان كل شعر قد انتفى · « الهم كله والعذاب كله ـ ألا أزال حيا وغائبا ـ أن أكتب هذه القصيدة ـ بدلا من القصيدة الحية ـ التى لن أكتب أبدا ـ مادمت لست هنا »·

وقد آثر ايلوار التخفي تحت اسم مستعار وكأنه يريد أن يتخلى عن الاسم الذى اشتهر به فى ظل ملهمته فجعلته عزيزا علينا جميعا٠ ولم يبق للشاعر وقتئذ عزاء غير ما تستطيع أن تمده به الصداقة والمبادىء السياسية التى كانت زوجته « الميتة الحية » تشاطره الاقتناع بها ٠ وقد كتب كثير من المجهولين الى الشاعر يقاسمونه آلامه ، فأدت الصداقة والمبادىء وتعاطف الناس الى أن يستعيد بول ايلوار الأسباب التى تدعو الى الحياة ٠

هناك أصدقاء لم يتخلوا عن ايلوار يوما واحدا فوجد فيهم عضدا وتشجيعا على مقاومة المحنة التى ألمت به ٠ وعلى رأس هؤلاء يجب أن نضع بابلوبيكاسو ، الفنان الكبير الذى رسم صورا كثيرة لنوش ايلوار ومنها لوحة شهيرة لمتحف اللوفر تبدو فيها نوش وكأنها طيف باسم لطيف على أرضية رمادية تشبه ملاءات نوفمبر الرطيبة (٠ وقد وجد فيه الشاعر الصديق والأخ الذى يعينه على المحنة ٠ وكان ايلوار قد أصدر فى ديسمبر ١٩٤٤ كتابا أعاد فيه نشر معظم المقالات التى سبق أن كتبت عنه وبالذات فى « أعطهم ليروا » وألحق بها عدة قصائد ، نشرت ثانية فى قائمة معرض « بيكاسو الحر » فى يوليه ١٩٤٥ ٠ وفى عام ١٩٤٧ كتب ايلوار قصيدة نثرية من أهم ما كتبه ، وهى فى نفس الوقت ثناء على الرسام وشرح للمواقف التى اتخذها وما زال يؤكدها كل يوم تأكيدا أقوى وأشد ، أمام المشاكل التى تعرض لانسان اليوم وللفنان ٠ وتبلغ هذه القصيدة أقصى حدود الصفاء وتمتاز لغتها بالبساطة المتناهية ٠ ان نثر ايلوار الذي يتخذ مثل قصائده أشكالا أخاذة يستطيع فيها الشاعر أن يعبر عن خواطر غرامية قد شغلته طويلا وذلك فى بضع كلمات أو فى حكمة وجيزة ، ان هذا النثر قد بلغ هنا الى النقاء المطلق ٠ وكأن السطور تسيل وتعدو خفيفة رقيقة مثل الرسوم التى يوالى الرسام نشرها منذ سنة بعنوان «بيكاسو فى أنتيب» ٠

« اذا ما اكتسب الانسان يوما الحق فى الكســـل وأقام له الأقداس فانه سيكرم هناك عملك · أنت أبصرت الكثير بسيل فى مجرى يدك ، فأنت تثق فى أيدى الآخرين · وأنت تعلم خيرا مما يعلم أى انسان أن ليس هناك حاجة الى براح كبير من الربيع لكى نطلق الصيف على الارض ولكى نعجل بالمستقبل · ولهذافقد أثقلت كفك بذرة تشق · ان بيكاسو من الذين يؤمنون أن التصوير مثله فى ذلك مثل الشعر ، انما يستهدف « الحقيقة العملية » ·

●

وللبحث عن هذه الحقيقة العملية ، عمل الشاعر بأوفر قسط من الاجتهاد والفعـــالية ، فى مؤلفاته الأخـيرة · وقد تجاورت فى ديوانه « قصـــائد سياسية » قصـــائد تتطرق الى الحوادث التى تعرضت لها بلادنا ، وسطور يشرح فيها الشاعر بصدق لا يخلو من القسوة أحيانا ، وبدون خجل كاذب أو حياء مصطنع ، حيـاته الخاصة ، تلك الحياة التى لا يلمح اليها الشعراء عادة غير تلميحات منخفية قوامها الحذر والنفاق · وايلوار يشرح موقفه ويبين أسبابه ويقيم الدليل على أن الصلات التى تربط بين هذين المجالين أقوى وأمتن مما يظنه البعض ويعلمنا كيف نطوع جسدنا وفكرنا لننتقل مثله « من أفق رجل فرد الى أفق الجميع » ·

ومثلما حمل الشاعر بالأمس على « بناة الأنقاض » فهو يصب اليوم غضبه على « مدعى الأخلاقيات » الذين لن يستطيعوا أبدا أن يدركوا أن الانسان لا يمكن أن يتصل بأمثاله اتصالا كاملا الا عن طريق الحواس كما لا يمكن الا بفضل مؤازرتهم أن تتولد فيه الثقة والأمل فى الحياة والوعد بحب لا يكون الشـاعر فيه « انسان لم تكمل انسانيته » (الحياة المباشرة) ·

ويقول ايلوار فى كتاب « قصائد سياسية » ·

« وعندئذ عاد الرجل البائس يبتسم للناس ، ابتسامة قد تكون أقل ودا من ذى قبل ، ولكنها أقرب الى الصدق والخير وأفضل ··· وسمع هدير النشيد يصعد من الجمع المتماسك · ولم يعد يخجل » · وفى مقدمة هذا الكتاب يلاحظ أراجون الشبه بين لهجته الغنائية المتحمسة ولهجة أرنور ريمبو فى « فصل فى الجحيم » · ولكنه يشير الى الفرق الشاسع بين المشاغل التى تنتظر هذا الشاعر وذاك عند خروجهما من جحيمهما · أما عند ريمبو فهو العذاب الميتافيزيقى واليأس الذى لا مخرج منه وأما عند ايلوار فهى ارادة قد صهرها الألم وزادها بينة وعلما بأمرها فهى تقود عبقرية الشاعر فى أيامنا هذه ، أيام « الفعالية الانسانية » التى طال انتظارنا لها ·

لويس باروت

أغسطس ١٩٤٦

من آراء ايلوار فى الشعر

«يجب على الشعر أن يســـتهدف الحقيــقة العملية »

« يجب على الشاعر أن يكون أنفع من أى مواطن فى قبيلته » .

لقد جاءالوقت الذى أصبح فيه من حق جميع الشعراء ومن واجبهم أن يؤكدوا انغماسهم بقـوة وعمق فى حياة سائر الناس ، فى الحياة المشتركة ٠

ان قوة الشعر المطلقة ستطهر البشر ، كل البشر ٠ وعلينا أن نصغى الى لوتريامون حين يقـول : « ينبغى للشعر أن يصنعه الجميع ، لا شخص واحد » ٠ ولسوف تتهدم كل الأبراج العاجية ، وسوف تصبح كل الكلمات مقدسة ، ولن يكون على الانسان ، وقد تآلف أخيرا مع الواقع الذى هو واقعه ، الا أن يغمض عينيه لتنفتح أمامه أبواب العجب ٠

●

الخبز أنفع من الشعر ٠ ولكن الحب بمعناه الكامل الانسانى ، العشق ليس أنفع من الشعر ٠ لايمكن للانسان الواقف فى أعلى سلم الكائنات ، أن ينكر قيمة عواطفه مهما بدا من قلة جدواها فى الانتاج أو من مخالفتها للروح الاجتماعية ٠ فهو كما يقول فيورباخ « له نفس حواس الحيوان ولكن الاحساس بدلا من أن يكون عنده نسبيا وخاضعا للاحتياجات الدنيا للحياة يصبح كائنا مطلقا هو هدف نفسه وهو متعة نفسه » ٠ ان الانسان فى حاجة الى أن يظل دائما واغيـا بتفوقه على الطبيعة حتى يحمى نفسه منهـا وحتى يتغلب عليها ٠

وهو عندما يصبح شابا يحس بالحنين الى طفولته وكهلا بالحنين الى صباه وشيخا بالمرارة لأنه قد عاش . ان صور الشاعر تتألف من موضوع للنسيان ومن موضوع للذكرى .

●

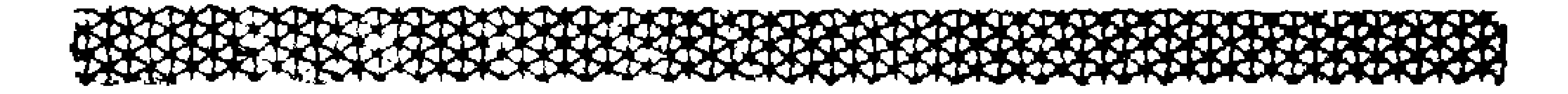
الخيال ليس فيه غريزة التقليد ، هو النبع والسيل الذى لا يصعد من جديد . ومن هذا النوم الحى يولد النهار ويموت فى كل لحظة .

الحقيقة تقال بسرعة وبدون تفكير وفى دقة واحدة . وما الحزن والغضب والرزانة والمرح سوى تغيرات زمنية لها وأجواء خاضعة .

الشاعر هو الذى يلهم أكثر مما هو الذى يلهم . وللقصائد دائما هوامش بيضاء كبيرة هوامش كبيرة من الصمت تحترق فيها الذاكرة المتقدة لتعيد خلق هذيان بلا ماض » .

(من محاضرة بعنوان « البداهة الشعرية »)

مختارات ..
من شعر پول إيلوار



لكي نحيا هنا

أشعلت نارا عندما تخلت عني زرقة السماء
نارا لكي أكون صديقها
نارا لتدخلني الى ليل الشتاء
نارا لكي أحيا حياة أفضل

ومنحتها كل ما كان النهار قد منحني :
الغابات والأحراش وحقول القمح والكروم
والأعشاش وعصافيرها والبيوت وأقفالها
والحشرات والأزهار والفراء والأعياد

وعشت على طقطقة اللهب ليس الا
وعلى شذى دفئه ليس الا
وكنت مثل مركب تغرق في المياه المغلقة
ومثل ميت لم يكن لي الا عنصر واحد

(١٩١٨)

الشـــفـــق

ليس هذا هو الليل • هذا هو القمر • الســـماء عذبة مثل زبدية الحليب ، جعلتك تبتسم ، أيها العاشق العجوز •

وأنت تحدثني عنهم • انهم زينة روحك ، انهم زينة منزلك ، انهم زينة حياتنا •

يا صديقي ، ما أكثرهم : أبا وأما وأولادا وزوجة ، لا يتمتعون بالسعادة •

لكن حلمك هادىء •

وأنا أبالغ في حساب العواقب •

(من ديوان الواجب والقلق ـ ١٩١٧)

قصائد من أجل السلام

« يا أيها العالم المنبهر
يا أيها العالم الطائش »
يوليه ١٩١٨

ياطالما كان لى وجه عديم الفائده
أما الآن
فان لى وجها لكى أحب
ان لى وجها لكى أكون سعيدا

●

أنا أحتاج الى محبه
الى عذراء محبه
عذراء فستانها خفيف

عـــامـــل

أن تبصر الأخشاب فى الشجر
والطرق والدروب فى الجبال
أن تغزل الحديد وتعجن الحجر
فى عنفوان العمر
أن تزيد من جمال الطبيعة
الطبيعة بدون زخرفها
أن تعمل

(من مجموعة « قدوات » ـ ١٩٢١)

المُحِبَّــة

واقفة فوق أجفانى
وشعرها بين شعرى
ولها شكل يدى
لون عينى
وتغوص فى ظلى
مثل حجر على السماء

بعيون دائما مفتوحة
لا تتركنى أنام
أحلامها فى الضياء الساطع
تتبخر منها الشموس
وتجعلنى أضحك ، أبكى وأضحك ،
وأتكلم وليس عندى ما أقوله ·

١٩٢٣ (من ديوان عاصمة الألم)

البنت الديناري

فى مطلع الصبا ، فتحت ذراعى للنقـاء . لم تكن الا خفقة بالجناح فى سماء خلودى ، الا خفقة قلب عاشق يخفق فى الصدور المطوعة ، لم يعد من الممكن أن أقع .

محبا للحب . ان الضوء . فى الحقيقة ليبهرنى . وانى أحتفظ منه فى قرارة نفسى بمـا يكفينى لـكى أتطلع الى المليل والى الليل كله والى كل الليالى .

كل البنات الأبكار مختلفات . انى أحلم دائما بفتاة بكر .

هى فى المدرسة تجلس أمامى وترتدى مريلة سوداء . وعندما تستدير لتطلب منى حل احدى المسائل ، تربكنى براءة عينيها حتى انها لتبادر بالاشفاق على ما يصيبنى من اضطراب ، فتلقى ذراعيها حول عنقى .

وفى غير هذا المكان ، تتركنى وتصعد فوق الباخرة . نكاد أن نكون غريبين عن بعضنا البعض ، ولكن شبابها من العنفوان بحيث انى لا أدهش فى شىء عندما تقبلنى .

وقد تكون مريضة فأحتفظ بيـدها بين يدى ، الى أن أهلك ، الى أن أستيقظ .

وأنا أهرع الى كل موعد تضربه لى ، أخشى أن يفوتنى الوقت فتسرقنى أفكار أخرى .

وفى ذات مرة ، كانت الدنيا على وشك النهاية · وكنا نجهل عن حبنا كل شيء ، فأخذت تبحث عن شفاهى بايماءات من رأسها بطيئة ملاطفة · وقد طاب ظنى فى تلك الليلة بأنى سأعود بها الى النهار ·

وانه دائما لنفس الاعتراف ونفس الشــــباب ونفس العيون النقية ، نفس البساطة فى القاء ذراعيها حول عنقى ونفس التدليل ونفس الالهام ·

ولكنها ليست أبدا نفس المرأة ·

قال الورق : انى سأقابلها فى الحياة ولكن بدون أن أتعرف عليها · محبا للحب ·

من كتاب « خوافى حياة » او الهرم البشرى » ١٩٢٦

الرسام چورج براك

عصفور يطير
ويزيح السحب مثل حجاب عقيم
هو لم يخش الضياء أبدا
مغلق فى طيرانه
ما له ظل

محارات الحصاد حطمتها الشمس
كل الأوراق فى الغاب تقول نعم
لا تعرف قولا الا نعم
كل سؤال نعم وكل جواب
والندى يسيل فى قلب هـذا النعم

رجل خفيف العيون يصف سماء الحب
ويجمع منها العجائب
كمثل أوراق فى الغاب
وكمثل أطيار فى أجنحتها
وبشر في المنام .

١٩٢٤ (من ديوان عاصمة الألم)

قلت لك

قلت لك ما قلت من أجل السحاب
قلته من أجل شجرة البحر
من أجل كل موجة ومن أجل العصافير فى الأوراق
من أجل حصى الضجيج
من أجل الأيدى الأليفة
من أجل العين التى تصبح وجها أو تصبح منظرا
ويعيد اليها النعاس سماء ألوانها
من أجل كل ما شربناه من ليل
من أجل شبكة الطرق
من أجل النافذة المفتوحة من أجل الجبين العارى
قلت لك من أجل أفكارك ومن أجل كلماتك
ان كل لطف وكل ثقة تدوم

(الحب الشعر)

(١٩٢٨)

بلاتاريخ

نحن نقترب
فى الغابات
اسلكوا طريق الصباح
اصعدوا درجات الضباب

نحن نقترب
وقلب الأرض يتقلص

عليها أن تلد يوما آخر

●

سوف تتسع السماء
لقد اكتفينا ولم نعد نطيق
أن نسكن فى أنقاض النوم
وفى الظل الأسفل من الراحة
والتعب والهجران
ستستعيد الأرض طابعها
طابع أجسامنا الحية
ستخضع الريح لاستبدادنا
ستمر الشمس والليل من عيوننا
بدون أن تتغير أبدا

براحنا أكيد فهواؤنا النقى قادر
أن يردم التأخير الذى حفرته العادة
سوف نرسو جميعا على شاطىء ذاكرة جديدة
سوف نتحدث معا بلغة محسوسة

●

يا اخوتى الأضداد المحتفظين فى حدقاتهم
بالليل الفطرى وبشاعته
أين تركتكم
وأيديكم مثقلة فى الشحم الكسول
شحم أعمالكم القديمة
يااخوتى المفقودين
أنا أمضى نحو الحياة هيئتى هيئة البشر
لأقيم الدليل على أن العالم
قد صنع على قدرى

ولست وحيدا
ألف صورة منى تضاعف نورى
ألف نظرة متشابهة توازن كيان البشر
وهو العصفور وهو الطفل وهو الصخر وهى السهول
تمتزج بنا
والذهب يقهقه اذ أبصر نفسه خارج الهاوية
والماء والنار يتعريان فى موسم واحد
وليس هناك خسوف فى جبين الكون

●

أياد تعرفت عليها أيادينا
وشفاه بشفاهنا اختلطت

والحرارة الوردية الأولى
صاهرتها نضارة الدم
ومنشور الألوان والأشعة يتنفس معنا
فجر غزير خصيب
على قمة الأعشاب كلهن ملكان،
وعلى قمة الكلأ وعند أطراف الجليد
وأمواج ورمال تتقلب
وطفولات تثابر فى الدوام
خارج كل المغاور
وخارج أنفسنا

(١٩٣٨)

انتصار جرنيقة

(١)

جميل يا عالم الأكواخ
والمنجم والحقول

(٢)

وجوها تصلح للنار وجوها تصلح للبرد
للحرمان لليل للاهانات للضرب

(٣)

وجوها تصلح لكل شيء
ها هو الفراغ يحدق فيكم
وليكن موتكم عبرة

(٤)

الموت قلب منكوس

(٥)

أجبروكم على أن تدفعوا ثمن الخبز
والسماء والأرض والماء والنوم
وبؤس
حياتكم

(٦)

كانوا يقولون نحن نريد التفاهم
وكانوا يوظفون الأقوياء ويحاكمون المجانين
ويزاولون الاحسان ويقسمون المليم الى نصفين
ويحيون الجثث
ويتراشقون بآيات الكياسة

(٧)

انهم يشابرون انهم يبالغون انهم ليسوا من عالمنا

(٨)

للنساء وللأطفال نفس الثروة
من أوراق الربيع الخضراء ومن اللبن النقى
ومن المداومة
فى عيونهم النقية

(٩)

للنساء وللأطفال نفس الثروة
في عيونهم
والرجال يذودون عنها بقدر ما يمكنهم

(١٠)

للنساء وللأطفال نفس الورود الحمراء فى عيونهم
كل امرىء يبدى دمه

(١١)

الخوف والجرأة على الحياة والموت
ما أصعب الموت وما أسهله

(١٢)

يا رجالا من أجلهم كان التغنى بهذه الثروة
يارجالا من أجلهم تبددت هذه الثروة

(١٣)

يا رجالا حقيقيين من أجلهم
يغذى اليأس نار الأمل الملتهمة

فلنفتح معا آخر برعم من براعم المستقبل

(١٤)

يا أيها المنبوذون ان الموت والارض
وبشاعة أعدائنا
رتيبة اللون مثل ليلتنا
ولنا النصر عليهم

استراحة الساعات

كلمات هائلة تقال همسا
والشمس تسطع والنوافذ مغلقة
ومركب كبير على مجرى المياه
تقاسمت أشرعته الرياح

وفم يخفى فما
وأقسمنا اليمين
ان لم نكن صوتين ألا نقول شيئا
عن السر الذى ينشرخ الليل به

حلم الأبرياء الوحيد
همس واحد صباح واحد
والمواسم فى ائتلاف واحد
تلون بالجليد وبالنار

أفواجا تجمعت أخيرا

(الكتاب المفتوح)

حرّيـــة

على كراسات المدرسة
على دكتى وعلى الشجر
وعلى الرمال وعلى الجليد
أنا باكتب اسمك

على كل صفحة العين قرتها
على كل صفحه لسه بيضا
وحجر ودم ورق رماد
أنا باكتب أسمك

على كل صوره مدهبه
وعلى سلاح المحاربين
وعلى تاج الملوك
أنا باكتب اسمك

وعلى الغابات وعلى الصحارى
وعلى العشوش وعلى النبات
وعلى صدى أيام طفولتى
أنا باكتب اسمك

وعلى عجايب دى الليالى
وعلى رغيف أيامنا الابيض

وعلى الفصول المخطوبه
أنا باكتب اسمك

على كل خرقه من السما
والبركه شمس معطنه
وعلى البحيره بدر حى
أنا باكتب اسمك

على كل نفحه من السحر
وعلى البحار وعلى المراكب
وعلى الجبال متعفرته
أنا باكتب اسمك

وعلى ريم السحاب
وعلى عرق العواصف
وعلى المطر ماسخ غليظ
أنا باكتب اسمك

على الأشكال الملاليه
على أجراس الألوان
على الحقيقة الجثمانية
أنا باكتب اسمك

وعلى الدروب الصاحيه
وعلى الطرق مفروده
وعلى الميادين اللى فاضت
أنا باكتب اسمك

وعلى اللمبه اللى تولع
وعلى اللمبه اللى تطفى
وعلى بيوتى أتجمعت
أنا باكتب اسمك

وعلى الثمره اتقسمت نصين
من هنا المرايه وهنا غرفتى
وعلى سريرى محاره فاضيه
أنا باكتب اسمك

على كلبى فجعان وحنين
على ودانه المطرطقه
على رجله ينقصها الشطاره
أنا باكتب أسمك

على عقب بابى
على كل أشيائنا الوليفه
على موجة النار المباركه
أنا باكتب أسمك

على كل جسم يوالف
على جبين أصحابى
على كل ايد تتمد
أنا باكتب أسمك

على قزاز المفاجآت
على الشفايف متلفته

فوق السكات
أنا باكتب اسمك

على ملاجئى المتهدمه
وعلى مناراتى اللى وقعت
وعلى حيطان زهقى
أنا باكتب أسمك

على الغياب خالى من الرغبه
على العزلة العريانه
على درجات الموت
أنا باكتب اسمك

وعلى الصحه اللى عادت
وعلى الخطر اللى زال
وعلى الأمل ناسى اللى فات
أنا باكتب اسمك

وبقدره من كلمه
أنا باستهل حياتى تانى
مولود عشان أعرفك
وانده عليك بالاسم

حــريه

(من ديوان الشعر والحقيقة ٤٢)

الليلة الأخيرة

(١)

هذا العالم الصغير القاتل
موجه ضد البرىء
ينتزع الخبز من فمه
ويطعم النار بيته
ويستولى على سترته وحذائه
ويستولى على وقته وأولاده

هذا العالم الصغير القاتل
يخلط الأموات والأحياء
ويبيض الوحل ويعفو عن الخونة
ويحيل الكلمة الى ضوضاء

شكرا ياليل ، اثنتا عشرة بندقيه
تعيد السلام الى البرىء
وعلى الجموع أن تدفن
جسمه الدامى وسماءه السوداء
وعلى الجموع أن تدرك
ضعف القتلة

(٢)

المعجزة هى أن ندفع هذا الحائط دفعة خفيفة
هى أن نتمكن من نفض هذا التراب
هى أن نكون متحدين

(٣)

كانوا قد أدموا يديه وأحنوا ظهره
وحفروا ثقبا فى رأسه
ولكى يموت كان عليه أن يكدح طول حياته

(٤)

أيها الحسن المخلوق للسعداء
أيها الحسن أنت فى خطر عظيم
هذه الأيدى المعقودة فوق ركبتيك
أدوات السفاح

وهذا الثغر الذى يغنى عاليا
اناء يستجدى فيه المتسول

وهذا الكوب من اللبن النقى
يصبح ثدى المومس

(٥)

كان الفقراء يلتقطون خبزهم في المجرى
كانت نظراتهم تغطى الضوء
وما عادوا يخافون بالليل
مستضعفين ضعفهم بجعلهم يبتسمون
وفى الفرار من ظلهم كانوا يحملون أجسادهم
ولا يبصرون أنفسهم الا من خلال كربهم
ولا يستخدمون الا لغة وثيقة بهم
وأنا أسمع حديثا يجرى بلطف وعلى حذر
عن أمل قديم كبير كانفتاح اليد
وكنت أسمع حسابا يجرى
عن مساحات ورقة الخريف عندما تتضاعف
وعن انصهار الموج فى كبد البحر الهادىء
كنت أسمع حسابا يجرى
عن مساحات القوة المقبلة أضعافا مضاعفة

(٦)

لقد ولدت خلف واجهة شنعاء
وأكلت وضحكت وحلمت وانتابنى الخجل
لقد عشت كمثل الظل
ولكننى عرفت كيف أتغنى بالشمس
بالشمس كلها تلك التى تتنفس
فى كل صدر وفى كل العيون
قطرة الصفاء المتلألئة بعد الدموع

نحن نلقى بحزمة الظلمات الى النار
ونحطم أقفال الظلم الصدئة
بشر مقبلون لا يخافون من أنفسهم
لأنهم على ثقة بكل البشر
ولأن كل عدو بشرى الوجه يزول

(من ديوان الشعر والحقيقة)

١٩٤٢

إعلان

كانت ليلة موته
أقصر الليلات فى عمره
كلما أدرك أنه مازال يحيا
احترق الدم فى معصميه
من ثقل في جسمه يتقزز
ومن قواه يئن
لكنه فى غور هذى البشاعة
استهلت بسمته
لم يكن له رفيق واحد
ولكن ملايين وملايين
ليثأروا له ، وهو يعلم
وأشرق النهار له

الموعد الألمانى

موازين العدو

التعظيمات قد نالت من الكرامة
والأحذية قد نالت من نزهاتنا
والأغبياء قد نالوا من أحلامنا
والأنذال قد نالوا من الحرية
والحرمان قد نال من الأطفال
ياأخي قد نالوا من أخيك
والرصاص قد نال من أجمل الوجوه
الحقد قد نال من آلامنا
ولكن قوانا قد ردت الينا
وسوف ننال من الشر

لقد عمل عدد صغير من المثقفين الفرنسيين فى خدمة العدو

ارعبوا فبعثوا الرعب
جاءت الساعة كى نحصيهم
فقد أوشك سلطانهم أن يزول

قد امتدحوا لنا جلادينا
وفصلوا الشر تفصيلا
لم يقولوا شيئا بحسن نية

ياكلمات التحالف الجميلة
لقد غطوك بالحشرات
فمهم يطل على الموت

ولكن الساعة قد جاءت
لكى نتحاب وكى نتحد
ولكى نهزمهم ونجازيهم

باسم الجبين الكامل العميق
باسم عيون أرى
وفم أقبل
اليوم والى الأبد

باسم الأمل المدفون
باسم الدموع فى السواد
باسم الأنات التى تبعث على الضحك
باسم الضحكات المخيفة

باسم الضحكات فى الشارع
وعذوبة تجمع أيدينا
وباسم الثمار تغطى الزهور
فوق أرض جميلة طيبة

باسم الرجال فى السجون
وباسم النساء فى المنفى
وباسم كل رفاقنا
المستشهدين والمذبوحين
لأنهم لم يقبلوا الظلمة

علينا أن نتدفق بالغضب
وننهض بالحديد
حفاظا على الصورة العالية
صورة الأبرياء طوردوا فى كل مكان
فى كل مكان سينتصرون

(سبع قصائد حب فى زمن الحرب)
١٩٤٣

أسلحة الألم

الى الوالد :

يا أبا الأنقاض
أنت رجل بقبعة مثقوبة
ومحاجر محفورة
ونار سوداء
وسماء فارغة
خلقت لتعمر فى الأرض
وحلمت بأن تكون سعيدا

يا أبا الأنقاض
ان ولدك قد مات
مقتولا

يا أبا الحقد
أنت ضحية قاسية
يارفيقى فى الحربين
تمزعت حياتنا
فهى دامية قبيحة
ولكننا نقسم يمينا

أن نرفع الخنجر قريبا

يا أبا الأمل
أمل الآخرين
أنت في كل مكان

●

والأم تتحدث فتقول :

كنت فيما أقسمنا قد بنيت ثلاثة قصور
قصرا للحياة وقصرا للموت وقصرا للحب
وأما المتاعب الصغيرة المسكينة
فى حياتى السعيدة الطيبة
فقد كنت أخفيها وكأنها ثروة

كنت فى ظل العذوبة قد نسجت ثلاثة معاطف
معطفا لى وله ومعطفين لولدنا
كانت لنا نفس الأيدى
وكل منا يفكر عن الآخر
ونزيد الأرض حسنا وجمالا

كنت فى الليل قد لمحت ثلاثة أنوار
وما أن أنام حتى يختلط كل شىء
الولد والأمل والوردة ، المرآة والعين والقمر
كنا رجلا لا نكهة له ولكنه واضح اللهجة
وامرأة لا بريق لها ولكنها تسيل بين الأنامل

وفجأة ساد الخواء
فأنا أضل فى السواد
ظهر العدو
أنا وحدى فى لحمى ودمى
أنا وحدى لكى أحب

●

وابنها ، هذا الولد ...

هذا الولد كان فى أمكانه أن يكذب
وينقذ نفسه

السهل الرخو يستعصى عبوره
هذا الولد لم يكن يحب الكذب
لقد صاح عاليا وأقر ما ارتكبه
لقد جعل حقيقته
لقد جعل الحقيقة
مثل السيف تواجه جلاديه
مثل السيف شرعه الأسمى

وقد انتقم منه الجلادون
وعرضوا أمامه الموت
الأمل الموت الأمل الموت
لقد عفوا عنه ثم أعدموه

لقد عذبوه بقسوة

كانت يداه وقدماه محطمة
هكذا قال حارس المقبرة

●

فكرة واحدة وحماسة واحدة
وأسلحة الألم

●

ان الذين سينشرون السلام على الأرض
مكافحون ينزفون النار
عمال وفلاحون
محاربون ممتزجون بالجموع
وعقلهم يصنع العجائب
ليتقنوا ضربتهم
محاربون مثل الجداول
يروون فى كل مكان حقولها الجرداء
وتخفق أجنحتهم المثابرة
لتمحى مع ضباب السماء
اخلاقيات الظالمين
الذين يريدون فناء العالم
وبقدر الحب يكون الحقد

محاربون بقدر الأمل
ومعنى الحياة
والكلمة المشتركة

والحمية فى الانتصار
واصلاح الشر
الذى وقع بنا

محاربون على مرام فؤادى
هذا يفكر فى الموت
وذلك لا يفكر
هذا ينام وذلك لا ينام
ولكنهم جميعا يحلمون حلما واحدا
بأن يتحرروا

كل منهم ظل للجميع

●

البعض كئيب والبعض عريان
يغنون صلاحهم ويجترون داءهم
يجترون ثقل أجسامهم
وغناؤهم انطلاق

وبألف حلم بشرى
وبألف طريق من طرق الطبيعة
يخرجون من بلادهم
وبلادهم تدخل فيهم
ويجرى الهواء فى دمهم
بلادهم يمكن أن تصبح
بلاد الأعاجيب
بلاد البراءه

متمردون بقدرة الانسان
تحت سماء الناس كلهم
على الأرض متحدة خصبة

ثمرة ناضجة
والشمس فى داخلها قلب نقى
الشمس كلها للناس

الناس كلهم للناس
والأرض بأجمعها والزمن
والسعادة في جسم واحد

●

أنا أقول ما أرى
أقول ما أعلم
أقول ما هو حق .

(فى الموعد الألمانى)

اقتل

يهبط الليلة
فوق باريس سلام غريب
سلام عيون عمياء
وأحلام لا لون لها
تصطدم بالجدران
سلام أذرع لا طائل منها
وجباه منهزمة
ورجال غائبين
ونساء مضنين
شاحبات باردات مالهن دموع

يهبط الليلة
فى مناخ الصمت
فوق باريس بريق غريب
فوق قلب باريس الطيب العجوز
بريق أجش بريق الجريمة
المبيتة الوحشية النقية
جريمة ضد الجلادين
ضد الموت

(فى الموعد الألمانى)

وحـــوش أشـــــرار

أعداؤنا
جاءوا من الخارج
جاءوا من الداخل
وأتوا من فوق
وأتوا من تحت
من قريب وبعيد
من يمين ويسار
يرتدون الخضرة
أو لون الرماد
سترتهم قصيرة
معطفهم طويل
صليبهم مقلوب
كبار البنادق
صغار السكاكين
متباهون بجواسيسهم
أقوياء بجلاديهم
منتفخون بالغم
مسلحون حتى الأرض
وفي بطن الثرى

تصلبوا بالتعظيمات
وتصلبوا من الخوف
أمام رعاتهم
طافحين البيرة
طافحين القمر
يغنون فى وقار
غنوة حذاء البوت
لقد نسـوا
سعد الانسان بحبيب يحبه
فاذا قالوا : نعم
كل شيء قال : لا
واذا تحدثوا عن الذهب
كل شيء يتحول الى رصاص
ولكنما ضد ظلهم وظلامهم
كل شيء سيتحول الى ذهب
كل شيء سيستعيد شبابه
فليذهبوا فليموتوا
موتهم يكفينا

●

نحن نحب البشر
وسنغنى بهم
فى صباح مجيد
فى عالم جديد
عالم سوى

(فى الموعد الألمانى)

إلى التى يحلمون بها

تسعمائة ألف أسير
وخمسمائة ألف سياسى
وألف ألف من العاملين

يا سيدة نومهم
امنحيهم قوة الانسان
وسعادة وجوده
امنحيهم فى انظلام الهائل
شفاه حب عذب
مثل نسيان الآلام

يا سيدة منامهم
بنية وزوجة وأختا وأما
أثداؤها رابية بالقبل
امنحيهم بلادهم
مثلما أحبوها دائما
بلادا مجنونة بالحياة

بلاد يغنى فيها النبيذ
ويطيب قلب الحصاد
ويمكر الأطفال

وينبه الشيوخ فهم أوعى
من أشجار مثمرة بيضاء بالزهور
بلاد يمكن فيها الحديث الى النساء

تسعمائة ألف أسير
وخمسمائة ألف سياسى
وألف ألف من العاملين

ياسيدة نومهم
عبر النار النازفة
كونى فجرا قديسا أبيض العصا
وأطلعيهم على طريق جديد
خارج أسوار سجنهم

كان جزاؤهم أن يعرفوا
أخس قوى الشر
ولكنهم قد صمدوا
رشقوا على حد سواء
بالفضائل والجراح
فعليهم أن يعيشوا

يا سيدة نومهم
يا سيدة يقظتهم
امنحيهم الحرية
ودعى لنا عارنا
لأننا قد آمنا بالعار
للقضاء على العار

(فى الموعد الألمانى)

جبريـــل بـــيرى

رجل مات لم تكن تحميه
غير ذراعيه المفتوحتين للحياة
رجل مات ما له من طريق
غير التى تكره فيها البنادق
رجل مات يواصل الكفاح
ضد الموت وضد النسيان

فكل ما كان يريده
نحن نريده أيضا
نريده اليوم
أن تضىء السعادة
فى قرارة العيون والقلب
وعلى الأرض العدالة
كلمات يحيا بها الانسان
وهى كلمات بريئة
منها الدفء ومنها الثقة
والحب والعدل وكلمة الحرية
وكلمة طفل وكلمة لطافة
وبعض أسماء الزهور وبعض أسماء الفواكه
وكلمة شجاعة وكلمة اكتشاف

وكلمة أخ وكلمة رفيق
وبعض أسماء المواطن والقرى
وبعض أسماء النساء والأصدقاء
نضيف اليها بيرى
مات بيرى من أجل ما نحيا به
علينا أن نوده فصدره مخترق بالرصاص
ولكن كل انسان بفضله زاد معرفة بأخيه
وعلينا أن نود بعضنا فأملنا مازال حيا

(فى الموعد الالمانى)

أغنيـــة النـــار
قاهـــرة النـــار

نار تندلع فى الجسد
قرينة الفجر
نار تندلع فى الأيدى
وفى النظرات وفى الصوت
جعلتنى أتقدم
فحرقت الصحراء
وداعبت هذه النار
نار الرحب ونار الرعب
ضد مخاوف الليل
وضد مخاوف الرماد
نار مثل الخط المستقيم
مثل وقع القضاء فى الظلمات
مثل خطوة فى التراب
نار لها صوت ورأس
تصيح من فوق الأسطح
القوا بالموت فى النار
نار تندلع فى الجسد
نار تشب فى السلاسل
فى السلاسل والأسوار والكمامات والأقفال

والعميان والدموع
والموالد المشوهة
والموت الذى وضعته فى العالم شرا
نار تهاجم النجوم المطفأة
والأجنحة المهيضة والزهور الذابلة
نار تهاجم الأنقاض
نار تصلح كوارث النار
بلا ظلال وبلا ضحايا
عوسج من دم وهواء
حصاد صيحات تسامت
وحصاد أشعة
فى مقلاع نشيد
نار لم يخلقها أحد

من ورائها الندى
ومن ورائها الربيع
ومن ورائها الأطفال
يلهمون الايمان لكل البشر
وبقلبهم الذى لا ينفصم
الناصع النقاء
نار واضحة فى جوهر
كل القوى العارية
نار واضحة فى شبكة
الأضواء والألوان
نار رؤية وقول
لطف أبدى
حب وأمل بالسليقة

معرفة بالأمل
حلم ليس فيه اختراع

حلم كامل
فضيلة النار

(فى الموعد الألمانى)

لا حجر أثمن
من الرغبة فى الثأر للبرىء

لا سماء أسطع
من صباح يسقط فيه الخونة
لا سلام على الأرض
اذا اغتفرنا للجلادين

(من قصيدة « باعة التسامح »)

فى أبريل ١٩٤٤ كانت باريس لا تزال تتنفس

كنا نهبط نحو النهر المخلص : لم تتخل عن باريس مياهه ولا عيوننا ٠

باريس ليست مدينة صغيرة لكنها طفلة وأم رءوم ٠

مدينة تمر عبر كل الأشياء ، مثل دروب الصيف ، مليئة بالأزهار والعصافير ، مثل قبلة عميقة ، مليئة بالأطفال المبتسمين ومليئة بالأمهات الرقيقة ٠

ليست مدينة مهدمة ولكنها مدينة معقدة ، وسمت بعريها ٠

●

مدينة بين معاصمنا مثل غل محطم ، بين عيوننا مثل عين سبقت رؤيتها ، مدينة معادة مثل قصيدة ٠

مدينة ذات شبه ٠

مدينة قديمة ٠٠ بين المدينة والانسان لم يكن حتى ولا سمك جدار ٠

مدينة الشفافية ، مدينة بريئة ٠

●

لم يكن هناك بين الانسان الوحيد والمدينة الخلاء الا سمك مرآة·

لم يكن هناك الا مدينة بألوان الانسان أرضا ولحما ودما ونخاعا·

النهار الذى يلعب فى الماء والليل الذى يموت على الأرض ·

ايقاع الهواء النقى أقوى من الحروب ·

مدينة ممدودة اليد وكل الناس يضحكون وكل الناس يتمتعون
مدينة قدوة ·

●

لم يستطع كائن من كان أن يحطم الجسور التى تقودنا الى النوم
ومن النوم الى أحلامنا ومن أحلامنا الى الخلود ·

مدينة باقية ، عشت فيها انتصارنا على الموت ·

(فى الموعد الألمانى)

عن الانتصار

ما أغرب المدن
التى ظفرنا بها
وما أغرب المحاربين
الذين هزمنا

كانوا رجالا مثلنا
ولكنهم يبغضون البشر
ويريدون أن يسجنوا
عالمنا التعيس

وقد رأيناهم حق الرؤية
بهيلهم وهيلمانهم
وصحتهم وغبائهم
وترديهم فى الشر

قادة متوجين بالظلام
لم يكونوا يفقهون شيئا
وكانوا يضحكون من ضحايا
أقوى من قوتهم

كانوا يظنون أنفسهم بشرا
وكأن طفلا معتوها
يظن نفسه طفلا
كانوا أمواتا يتأملون موتهم

أمواتا يريدون الموت
أمواتا يريدون قبوراً
تجلس فيها أقدام الموت
كانوا يسيرون الى الوراء

ضد الجموع الهائلة
ضد الأمل القديم
الذى سيحررنا
من الحقد الى الأبد

(ق الموعد الألمانى)

أبطال وضحايا
فى موقع من شموس
وبحار جددت
وفى فوضى
الأشغال والسجون
والأحزان والمجاعات
أيديهم صافحت يدى
صوتهم شكل صوتى
فى مرآة أخوية
فيداى تصافحان أيدى
رجال سيولدون غدا
ويشبهونهم حتى
أنى أظن نفسى خالدا

لم نعد أعداداً عديدة
نحن أصبحنا الى مالا نهاية
الضوء والهواء والليل
تقيم جميعا فى كنفنا
يا اخوتى الشجعان
على طول عصر كامل
لقد نسيت النسيان
فالغدوات قديمة
والماضى جديد تماماً

ونحن المشاع
وكل شيء مشاع على الأرض
وبسيط مثل عصفور واحد
يخلط بضربة واحدة من جناحه
بين الحقول ألعارية والحصاد

والسماء بالأرض

(من قصيدة خلود الذين لم أعد أراهم)
(فى الموعد الألمانى)

إذا أنصتت اليونان

تحمست عيون هؤلاء الأطفال
فى خضم السيل
ومتاهات اللهب
وشق فى الأرض مثالى
تضىء سنابله العقول
ويفرغ صبر الحواس الخمس

هؤلاء الرجال والنساء أطفال
قلبهم يخفق بين الخضرة
افتتانهم سجية
وجفونهم شطآن
الشمس الطيبة والهواء النفى
شطآن شعب ربيعى

يريدون أن يكتسبوا أوطانهم
أن يكتسبوا حياتهم أن يجمعوها
أن يبعثروها فى أوطانهم
جمعوا الماء النقى الى النشوة
واستخلصت أيديهم القصور
من رعشة الضياء

كل انسان ينبغى أن يبنى كاملا
كل سهل أن يخصب
كل شجرة أن تستنير جذورها
اكتسب الغد حماسة الهناء
لم يعد يوجد من يبرد ليلا
تدفأ الغد بيومنا الحاضر

●

كارايورجيس يبرد ليلا
ويسقط من أعلى أحلامه
وزوجة كارايورجيس
مسجونة فى بلادها
هى فرع فى الشتاء
تبرد لأنها لا تنام

لقد تمرد كارايورجيس
واستولى منذ أمد بعيد
على السلاح مثل البراعم
مثل شياطين الأمل
وأنا أغنى كارايورجيس

أغنى الحب المنتصر
أغنى خلود
زوجين فى الحب والسلاح
تحفظهما
أغانى أصدقائهما
الذين يعرفون ثقل الأسلحة
ويشعلون نارا عالية دافئة

وحدة الانسان على الأرض جوع وعطش
لقد أعملت النار فى الجليد
لقد تيقنا من حبنا
الى الأبد ، وانى لأقسم لكم
وان أكن مهجورا
وان تكن صورتى هلكت

على الجسر الأسود الذى يقود الى الفجر
حتى دم العزلة أحمر
حتى الدم القمرى أحمر
والحب يخرج منه فى نقاء العين
وتضحك المرأة ويتنفس الرجل
ويتوالد الحب فى كل مكان

ولا يظلم كارايورجيس
ولا يظلم مستقبلنا
خوفنا من أن نعيش ونموت
فأيدينا تداعب كل ميلاد جديد
لا سر ولا ماضى
فتعالى أعينينى يا من أحب

وسطحنا هو البقاء
مظللا وعود الأمس
والحصاد يبذر بذوره
والحنان يضاعف الحماس
وعصفور ينفتح وعش يطير
وفمان يضمان شبابهما

اذا أنقذت اليونان
من أعداء كل البشر
اذا تجرد الصدف
من سجن قشرته
من كفنه المعتم الأغبر
اذا كشف اللون عن أثدائه

اذا لعبنا لعبة مشتركة
فى هذا العالم الذى نمتلك
لعبة أراض بلا حدود
لعبة سماء بلا سحب
لاستعاد الانسان أنفاسه
وأهدافه ومنابعه ومناخه

●

تقطع الموت شرارة
تقطع الصحراء قطرة ماء
ان زوجة كارايورجيس
فى قرارة ليالى عذابها
تثق كما يثق الأطفال

نحن لا نحتاج الى أكثر لكى نعيش

(من ديوان « درس أخلاقى »)

خطاب فى الذكرى المئوية لوفاة الشاعر شاندور بيتوفى

أريد أن أحيى رجلا مات منذ مائة عام ، رجلا مات فى السادسة والعشرين من عمره ولكن بلاده المجر تحتسب العصور
بحياة أبنائها
بحياة شعرائها
وأنا أحيى هنا شاعرا حيا

لم يولد بيتوفى من سماء وشمس
كان أبوه جزارا وأمه خادمة
وأريد هنا أن أتغنى بشقائه وبمجده
قهر البؤس لأجيال عديدة
وكان بشرا فى قلب أمثاله

على يده السلاح ، كان ينادى العاصفة
وبكلمات الحب كان يثير الصاعقة
ضد أعداء الورود البسيطة والخبز
أريد أن أتغنى هنا بقاهر الطغاة
شاعر باركت عليه صغار الناس

أريد أن أتغنى هنا بصبى فى الخامسة عشرة
يتجرأ على التعبير عن الانسان بالتمثيل

صبي وحيد يموت من الجوع ولكنه يلعن العدم
صبي عرف كيف يكون انسانا عظيما
صبي في أيامنا انسان الى الأبد

بيتوفى يعرف قيمة الشجر على الأرض
شجر جذوره فى أيدى العاملين
شجر يبنى الجسور بين الحياة والخلود
ويضىء القبلات التى تبعث الانسان
ويقوده ماء الينابيع الى برار جديدة

بيتوفى يعرف بهجة المعركة التى لا ضحايا فيها ويعرف كيف يتغنى بالصيف المنتصر بلا جريمة ولكنه يقاتل وهو مؤمن ويجود بدمه كله

ليموت حرا وليخلد الأمل
أمل الفقراء عسل المجر

وأنتم تتمنون يا رفاقى أبياته الذهبية
بذهب ايمانكم المرح
وتحصى المجر أبناءها الأمناء
وأبطالها فى نجوم بيتوفى
واحلام بيتوفى
وقصيدته عن سهل المجر

(٣١ يولية ٩٤٩.

حـــــوار

الابتكار الجميل غطاه العار
والذاكرة الذهبية كساها الرصاص
والحب المجيد ألقى به خارج الفراش
والطبيعة النبيلة دنسها الاقدام

« تعالوا انظروا للدم فى الشوارع »

نحن أعدادا عديدة نرفض
أن تكون الشمس سكينا
وأن يكون البحر سما
نحن أعدادا عديدة نريد الحياة

« لا شيء ولا حتى الانتصار
سيردم الفراغ الفظيع الذى خلفه الدم
لا شيء ولا حتى البحر ولا خطوات
الرمل والزمان
ولا النبات المحترق
فوق اللحد »
كثيرون منا قد تركوا الحياة

آملين فى عالم أفضل
كثيرون من الأبرياء كانوا على يقين من حقهم
وأنا أبتسم لهم وهم يبتسمون لى

« وجه بعيون ميتة يرقب الظلمات
سيفه منتفخ بأمانى الثرى »

رزانة الحواس والجنس
شريان المادة
نحن على فرع واحد
أوراقا وثمارا لكى نخدم الشجرة
لا عمل نؤديه الا الطيبة
ولا حيلة نزاولها الا العقل
بأطياره آلافا مؤلفة
محمولة من كوكب الى كوكب

« يا أبناء النصر الأثيرين لديه كم من مرة سـقطتم كم من مرة امحت أيديكم »

كلمة النصر لا تزال يا قلبى فأنا على ثقة والصباح وهو الصورة الأم لكل الصور يؤجل نفسه ولكنه هنا ما دمنا نتحدث عنه

والحلم شمس ليلية تزن الأبد

« يا أمهات اخترقهن القلق والموت
أنظرن الى قلب الصباح النبيل الذى يولد
واعلمن أن أمواتكن يبتسمون من هذه الأرض
وأن قبضاتهم المرفوعة ترتعش فوق القمح »

أريد أن تزهر دائرة حمراء
هى السماء على الأرض وهى التملك
الحقد هباء والحب اثنان
عندما يضعف أحدهما يزول كلاهما
« لقد رأيت بعيونى وبقلبى الذى ينظر
رأيت قدوم المناضلين الواضحين المسيطرين
فيلق الحجارة الرشيق القاسى الناضج المتقد »

(من « قصائد سياسية »)

● الأبيات التى بين علامات التنصيص من شعر بابلو فيرودا

أسبانيا

أجمل عيون فى العالم
شرعت تغنى
تريد أن ترى الى أبعد
من جدران السجون
أبعد من أجفانها
التى أدماها الشقاء

قضبان القفص
تتغنى بالحرية
لحنا يبحر
فوق الدروب البشرية
تحت شمس توهجت
تحت شمس عاصفة

أنتم حياة فقدت ووجدت
أنتم ليل الحياة ونهارها
فى المنافى والسجون
أنتم تغذون فى الظل
نارا تحمل الفجر

والنضارة والندى

والانتصار

ولذة الانتصار

(من ديوان قصائد سياسية)

قــوة الحـــب

ما بين كل مواجعى ، بين الهلاك وبينى
بين يأسى وما يدعونى الى الحياة
هناك الظلم وتعاسة البشر
التى لا أرضى بها ، هناك غضبى

ومراكز المقاومة بلون دماء اسبانيا
ومراكز المقاومة بلون سماء اليونان
الخبز والدم والسماء وحق الأبرياء فى الأمل
كل الأبرياء الذين يكرهون الشر

الضياء دائما على وشك أن ينطفىء
والحياة دائما توشك أن تضحى سمادا
ولكن الربيع يولد من جديد ولا يزول
وينجم من الظلمة برعم والدفء يقيم

وسيتغلب الدفء على الأنانيين
ولن تصمد له أعضاؤهم الضامرة
أنا أسمع حديث النار الضحوك الساخنة
وأسمع رجلا يقول انه لم يتألم

أنت يا من كنت من لحمى ودمى ضميرا يحس
أنت يا من أحب الى الأبد أنت يا من ابتكرتنى
لم تكونى تحتملين الطغيان ولا الاهانة
كنت تغنين وأنت تحلمين بالسعادة على الارض

تحلمين بأن تكونى حرة وأنا امتدادك

١٣ ابريل ١٩٤٧

"بيكاسو" أستاذ الحرية

يا بيكاسو ، أنا أراك هنا وأنا أدعوك باسمك ٠

عرفت وجهك منذ القديم ، فأنا ألم به سريعا وأتمعنه على المهل ٠

وجه من أسرتي ، أسرة كبيرة تتألف من أصدقاء ثقات ، أصدقاء بالنهار وأصدقاء بالليل ، كلهم على جانب من الوسامة ، وشديدو الاختلاف ٠

طيبون وأصدقاء بحق ، مستعدون دائما لأن يبذلوا صداقتهم ويبسطوا يدهم ، مثلما يبسطها الدب الى قرص العسل ٠

وانما أنت يا بيكاسو أول من يعانقون ، فلك الجميل على وفاء سلوكهم ٠

أكسبتهم سواء التواضع والاباء ، وهم يدورون فى فلك العاهات والقروح بشرا بين البشر ٠

علمتهم أنه يحسن للانسان فى آونة من عمره أن يتعلق بالوهم السعيد وأن يحلم مثل الأطفال بعطلة لا تنتهى ، ولكنك أيضا زودتهم باللهفة الى معرفة كل شىء ورؤية كل شىء ، وبالشجاعة طوال الأيام حتى يرفضوا الاذعان للمظاهر الفانية ٠

وفى يوم من الأيام سيسخرون من أنهم جاعوا ومن أنهم عطشوا ومن أنهم كثيرا ما تغذوا على أنفسهم ٠

يا بيكاسو ، ان وجهــك يعـــكس همومهم وآلامهم ، تماما مثل وجه المرأة التى يحبونها ٠

●

رأيتك وأنت تعمل بأسرك ٠ فتيا أو عجوزا ، أنت تعمل على تعرية عينيك وما تبصرانه ، ما تبدعه ٠

وهكذا تسلحت ضد الموت ، وضد مرارة الجسد وضــــد التواكل والندم ٠

●

فليقولوا عنك انك رسام ـ لا رسام كبير ولا رسام صغير ـ « رسام » كما ينبغى أن يقال « انســـان » أيا كانت الحرفة التى يزاولها صاحبها ٠

••• •••

●

وتمضى فى الشارع واثقا مطمئنا ٠ وتعلم أن الانسان يتحد بما يكونه لنفســــه من فكرة عن الآخرين ٠ وتعلم أننا لا نتألف كثرة واخلاصا الا فى الخارج ٠

خارج السجون ، فى المناخ الخفيف ، مناخ أمثالنا ٠

يا صنو نفسى وياعكسها ، ان العــالم ينقسم الى مالا نهاية ، ولكنه أيضا الى ما لا نهاية يتجمع ٠

•• •• ••

●

أنت لا تترك للظلال فرصتها ، فأنت لا تريد أن تحد الحياة
ــ حياة عينيك واليدين ٠

رايتك تخفق ضد الريح ، وأنت تتقدم مناضلا ٠

وقد أعلمت بنضالك ولم أعلم بما ينالك من ارهاق ٠ أنت
تعرف كل شيء عن ظهر قلب ٠

ولكنك سهل المعاشرة ، سمح لطيف طيب جذاب ٠

حتى تأزف لحظة يقلب فيهـــا الظلام عينيه الغائرتين ويظن
لنفسه حقا عليك يا أخي الأكبر يا أيها الوحش العيوف ٠

لحظة تشعر فيها أنك المسئول عن اخوتك وعن قضيتهم ٠
عليها يتوقف المستقبل ، قضيتهم عادلة ــ وأنت عادل ٠

●

ان عملك مثل الجرة الملأى تحملها الفتاة على رأسها ٠ شدت
الى مركز جاذبيتها ، فهى تمسك وتنمى حركاتها وتطيل جيدها ،
وتنعم كعبيها وتنشط أثداءها الى أعلى ٠

فى وضح عملك ، تهلل العاصفة وارتعاش القمح ٠

العالم قائم خلف الانســـان وأمامه ٠ العمل الذى أتممته
ما زال عملا وعليك تأديته ، لأنه قد تغير ساعة أن التفت ٠

كل شيء بلا انقطاع فى حاجة الى أن يعـــاد ابتكاره وتعـاد
رؤيته ، وهكذا يصبح العمل متعة ٠

ان رغبتك فى المعرفة تحملك الى خارج نفسك ، أنت لا تكرر
نفسك أبدا ٠ أنت فى هذا العالم الرتيب مثل طفل ينمو ويفقد كل
يـــوم ما كان عليه قلبه بالامس ٠ كل يوم على طريق مجهـــول

يا صغيرى العزيز ، أى انسان ستصبح ؟ لقد تجاوزت بشـائر الاساتذة القدامى فأنا أسمع ذاكرتهم التى احتفظت بعهود العبودية تبكى على كل الأحزان العتيقة المحتضرة ·

●

هل نحن مثال الأصـــدقاء ؟ نعم ، اذا قدر لكل البشر أن يصبحوا أصدقاء ·

وغدا تلتقى فى ســاحة قلبنا البهية ، جموع متـحدة ذكية سعيدة ـ منتصرة ·

١٩٤٧

مخاطر تهدد الانتصار

كن على حذر فان مرآة الحياة تظلم

ما هى الا خطوة أولى يخطوها الدم
وقطرة من دم
حتى ننتهى الى مسيرة الحرب والدم
والنار والارهاب والخراب والخلاء
نهاية الانسان الذى لم يعقل
ونهاية الانسان العاقل
الموت ونهاية البؤس
ونهاية الطغيان

ولكنها أيضا نهاية كل شىء ممكن

●

لا يجب أن نهلك بل يجب أن نعيش

على آثار أقدام زوجين
العشب ينمو والأزهار تقوم
وفى كل مكان يعبره البشر
تحس بالربيع فى الشتاء

ويذوب الصدأ ويزول فى قبلة
الجمع جمع سعيد
والأطفال هم كل الأفق

والسلام سيعيد الشباب الى البشر

●

ولن نفكر أبدا فى أن نكون على حذر

فى الربيع والصيف فى المطر والشمس

فى الخريف الساكن والشتاء عنيف الأمل
وعلى كل حدود
الفضاء والزمن
لن ترى الا رجالا يتآخون
الا نفس السحر ونفس المغرب
فى الربيع والصيف والخريف والشتاء

صدى للحياة اللانهائية وانعكاس لها ٠

كل شيء تم إنقاذه

كل شيء تم هدمه ، أنا أرى الكارثة
أرى فأرا فوق السطوح وعصفورا فى القبو
لم تعد تنطق الشفاه بين دفات الكتب
كل اللوحات قد انقلبت بالعرض
وأظلمت الذكريات والشهود

ان شيخا يرقد مثل الدمية بجانب المهد
وهذا طفل يبتلع بقايا تروس
وفى قاع المقبرة ميت صامد

كلمات العشاق العذبة وألحان الهدهدة
والأعمال صمتت صمتا يحطم كل شيء
وأغلقت طيور البصر
والتهمت نار بنفسجية عظام الفتاة
ومحت ريح الوباء هذا وذاك
ويجف الجحيم الميت فوق أبراج الكنائس
وهالة من الظلام تخنق كل الجباه
وبطل يستحم فى دماء مجرم

تحنطت الساعة فوق المجارى وفوق الموج

وجرب فى الفضاء يلتهم الأشجار الأخيرة
السماء ممطرة غير ممطرة تغضن صفوها
كأن لم يكن أبدا على الأرض حياة
قد تبدى الموت وكأنه ميلاد

كل شيء تم هدمه ، أنا أرى الساحات
وقد انتهى كل شيء وأمسك المحراث والفأس
فى منقارهما بنسيج الأعصاب

مرآة الجن سخيفة سقيمة لئيمة
تعكس فى حممها سلاحا هراء
هل شبه الفجر بأولى الرغبات
هل عرف الانسان القراءة فى بطن الحامل
هل كان الرجل من حجر هل كانت المرأة من رماد

النهد الذى بجلته الشفاه
داعبته أرصفة شارع كان مزدحما
غطى الغبار قطاع المدينة

الشر يبحث عن شريك ويجده
هو الخلاء الى الأبد
وأنا أتصوره
وأنا ولدت فى الشتاء فأستطيع أن أرى
كل شيء فى صورته السلبية
لقد ولدت لكى أموت وكل شيء يموت معى

أرى النجوم المطفأة نجومى

والحداد يوحد بين الجدران التى كانت تفصل البشر
ولا أحد هناك ليستخلص العبرة من هذه القصة

●

لم يهدم شيء · كل شيء تم انقاذه فنحن نريد
ونحن فى المستقبل الآتى ونحن الوعد
واليوم يسود غد على الأرض

ضحكات كبيرة فوق الميادين الكبيرة
ضحكات ملونة فوق الميادين الذهبية
ومراكب القبلات تكتشف العوالم
والحصاد والأطفال يبررون الطموح
والرجال يؤازرون ضمير الأمهات

وبريق العشق يكسو الوجوه حنانا
والنضارة فى العيون تدير مروحة من الريش
خلت الأحلام من الهم وسلكت كل السبل

احتياجات الانسان تلطف وقضاياه تحل
وللقلب براح يتحدى فضاء الفلك
مثل موجة لا انتهاء لها
مثل نبع يخلد الجسد
وجلال الحياة يستنكر الموت

أنا أتحدث عن زمن بلغنا اليه
نريده فلن يقلعنا شيء
عن المضى الى الأمام · نحن فى الأمام

تغنى عمال المناجم ضد الشقاء الظالم
ونفض أسرى الليمان سلاسلهم
وكافح اخوتنا فى كل مكان ولم يساورهم الشك أبدا
أزهرت الأخشاب الجافة والأشواك البراعم
واقترنت بالحب الشجاعة

كنا نصحو مظلومين فيشتد عزمنا على الكفاح
كنا هباء وأصبحنا كل شيء
خلص العالم لنا فخلصنا لأنفسنا

كان لسان الحياة يذوب فى فمنا
كنا لا نعرف واحة ولا مخبأ
ونبحث عن الواقع الأخوى بلا انقطاع
والحقيقة الملموسة والفضيلة المحسوسة
ومن عمق أعماق الألم كنا ندين الشر

لقد جاع اخوتنا ونهبوا وقتلوا
ودفعوا الى اليأس وسيقوا الى المذابح
ولكن وردة من دمهم نارية ظلت تعيش

ظل الناس أحياء وكنا الضمان لهم
وأضاء أحفادهم المستقبل
كنا محاسبين يحطمون أصفار العدم
وفلاحين يحسبون شهور التكوين
وتمتد رؤيتنا الى بعيد مثل الجسد المشرق

كانت قوانا لا تحد

والجمال والثقة لا يثقلان
فنداهما اليوم خصيب

هذا غد يسود اليوم على الأرض
لا غنى عن الانسان فى يوم البقاء
ها هو العالم شىء مفيد
شىء يلذ ولا يهدم شىء ملك
أفاضت عليه الحياة وأفاضت على الانسان

(من ديوان درس أخلاقى)

رســـالـــة

(الى مندوبى مؤتمر السلام)

رغم السماء الرحيمة والأرض الملتئمة
رغم الصيف أمجد من المحاربين
هناك نحيب بلا صدى مثل جزيرة خالية
يتعالى من تلاطم الحروب والشقاء

على المرء أن يعيش للعدم أو يحيا فى تعذيب
يشحب من هوله الشهداء المتيمون بزرقة السماء
فالنار التى أحرقتهم سرير يحس بالنزع
اذا هى قورنت بسلخانة الربح المريعة

●

حرب فى اليونان وفى كوريا وفى الفيتنام
حرب فى كل مكان يثور فيه الضحايا
حرب بلا جدوى فأنصار الحياة أكثر
من أن يتركوها للرماد والدم
والعالم كله يصبح عالما جديدا
والانسان شعلته ونبعه الخصيب
يتولد منه العقل والسعادة
كما يتولد العمل من الحلم والثمار من الزهور

وأنا أسمع ضحكة تتألق مثل ماء السيل
ويخفق فى ثناياها قلب ينكر الظلام والموت
أنا أسمع كلمات الحب تغير مجرى الزمن
وتحول الانسان الى طفل والمساء الى سحر
وأنا أسمع الأمل القديم يغنى ويستعيد شبابه
فهو لا يعيش على الذكريات ولكن على المستقبل

أحييكم يا رفاقى الصامدين
وقد جئتم اليوم تقسمون للغد وللأبد
بأننا سننال العدالة والسلام

(أول يولية ١٩٥١)

ولنقل الحقيقة
الشباب ثروة
والشيخوخة ثروة
والمحيط ثروة
والأرض منجم
والشتاء فراء
والصيف مشروب صابح
والخريف لبن المرحبا

أما الربيع فهو الفجر
وأما الفم فهو الفجر
وأما العيون الخالدة
فلها شاكلة كل شيء

ونحن الاثنين أنت عريانة
وأنا كما قد حييت
أنت منبع الدم
وأنا يداى مفتوحتان
مثل العيون
نحن الاثنين لا نحيا الا لنخلص للحياة

(من ديوان « شعر بلا انقطاع »)

أن أقول كل شئ

تمام الكل أن أقول كل شيء ولكن تنقصنى الكلمات
وينقصنى الوقت وتنقصنى الجرأة
أنا أحلم وأكرر صورى على هوى الصدفة
لم أعرف كيف أحيا وكيف أتكلم بوضوح

أن أقول كل شيء الصخور والطريق والأرصفة
والشوارع والمارة والحقول والرعاة
وزغب الربيع وصدأ الشتاء
والبرد والدفء يؤلفان ثمرة واحدة

أريد أن أصف الجموع وكل رجل بالتفصيل
بما يبعث فيه الحياة وما يدفعه الى اليأس
والمواسم التى تشكل وجوده وكل ما يستضيء به
أمله ودمه قصته وشقاؤه

أريد أن أصف الجموع الهائلة المنقسمة
الجموع محتجزة وكأنها فى مقبرة
والجموع أقوى من ظلها المشوب
وقد حطمت أسوارها وانتصرت على سادتها

وأسرة الأيدى وأسرة الأوراق
والحيوان الهائم بلا شخصية
والنهر والندى يخصبان ويثمران
والعدل منتصبا والسعادة قائمة على قدم سوية

وهل أعرف كيف أستخلص سعادة طفل
من دميته أو من كرته أو من صفاء الجو
وهل تؤازرنى العزيمة فأقول سعادة الانسان
وفقا لزوجته وأطفاله

هل أستطيع أن أوضح الحب ودواعى الحب
وما به من مأساة رصاص ومهزلة هشيم
والسلوك الآلى الذى يحيله الى معايشة
والملاطفات التى تخلده

وهل أستطيع أبدا أن أسلسل السياق
بين الحصاد والسماد على مثال الخير والجمال
هل أستطيع أن أقارن الحاجة بالرغبة
والنظام الآلى بنظام اللذة

هل أجد ما يكفينى من الكلمات لأصفى الحقد
بالحقد تحت جناح الغضب المهول
وأشهد الضحية تسحق الجلادين
هل أستطيع أن ألون كلمة الثورة

ذهب السحر الخالص فى عيون واثقة من نفسها
لا شىء يشبه سواه كل شىء جديد وثمين

أرى كلمات صغيرة تصبح أقوالا مأثورة
الذكاء بسيط عندما يتجاوز الآلام

●

فاذا عاديت هل أستطيع أن أقول الى أى مدى أعادى
ما تورث العزلة من داء سفيه
كدت أن أموت به دون دفاع
كما يموت بطل مقيدا مكمما

كدت أن أتحلل بهذا الداء قلبا وجسدا وروحا
لا شكل لها ولها أيضا كل الأشكال
التى يحاط بها التفسخ والانهيار
من مجاراة وحرب ولا مبالاة واجرام

وكاد اخوتى أن يطردونى
كنت أثبت نفسى ولا أفقه شيئا فى معركتهم
وظننت أنى آخذ من الحاضر أكثر مما يمتلك
ولكن لم يكن لدى أى فكرة عن المستقبل

ضد الفناء أدين وأدين بما أنا عليه
للرجال الذين عرفوا ما تحتويه الحياة
لكل المتمردين الذين تحققوا من أدواتهم
وتحققوا من قلبهم وتصافحوا

بشرا بين البشر دائما وبلا غضون
أغنية تصعد لتقول ما قاله دائما

الذين أقاموا مستقبلنا ضد الموت
وضد سراديب الأقزام والمعتوهين

●

وأخيرا هل أستطيع أن أقول لقد انفتح باب القبو
حيث كانت ترقد الدنان بكتلتها المظلمة
انفتح على الكروم حيث أسر النبيذ الشمس
وأستخدم فيما أقول كلمات الزارعين

قدود النساء مثل الماء أو الحجر
اما حنانا واما اكتمالا قاسيات أو خفيفات
والعصافير تعبر فضاء غير الفضاء
وكلب أليف يجر قدميه بحثا عن بقايا العظام

ليس لمنتصف الليل من صدى الا فى قلب عجوز
أفسد هذه الثروة فى الأغانى التافهة
حتى هذه الساعة من الليل لن تضيع
فلن أنام الا اذا استيقظ غيرى

وهل أستطيع أن أقول لا شيء خير من الشباب
وأنا أشير الى تجاعيد السنين على خدودى
لا شيء خير من توالى الاشعاع الى مالا نهاية
انطلاقا من البذور والورود

انطلاقا من كلمة صريحة وأشياء حقة
تتقدم الثقة ولا تتأخر

أريد أن نجيب قبل أن نسأل
ولا يتكلم أحد بلغة أجنبية

ولا يرغب أحد فى سحق البيوت
وحرق المدن وتكديس الأموات
لأننى سأمتلك كل الكلمات الصالحة للبناء
والتى تبعث على الايمان بالزمن

وسيضحك الانسان من وفر العافية
وسيضحك الانسان ضحكا أخويا كل ساعة
ويكون طيبا مع الآخرين كما هو طيب مع نفسه
ويحب نفسه لأنه يحب

وستخلى الرعشات المنعمة مكانها لهدير ينطلق
من ابتهاج بالحياة أنضر من البحر
ولن يشككنى شىء أبدا فى هذه القصيدة
التى أكتبها اليوم لأمحو البارحة

(سبتمبر ١٩٥٠)

وابتسامة

لا يظلم الليل تماما أبدا
فهناك ما دمت أقوله
وما دمت أؤكد
هناك عند أطراف الألم نافذة مفتوحة
نافذة مضاءة
هناك دائما حلم يسهر
أمنية لتحقق ، جوع ليشبع
قلب كريم
يد تمتد يد مفتوحة
عيون منتبهة
حياة هي الحياة لنتقاسمها •

(من ديوان « العنقاء »)

خير عدالة

شرع الرجال الدافىء
أن يصنعوا النبيذ من العنب
وأن يصنعوا النار من الفحم
ورجالا من القبل

شرع الرجال القاسى
أن يسلموا على الرغم
من الحروب والشقاء
ومخاطر الموت

شرع الرجال العذب
أن يحيلوا الماء الى ضياء
والحلم الى حقيقة
والأعداء الى اخوة

شرع قديم وجديد
كل يوم يتحسن
من عمق أعماق الوليد
حتى سماء العقل

مات بول ايلوار بالذبحة الصدرية يوم الثلاثاء ١٨ نوفمبر ١٩٥٢ فى الساعة التاسعة صباحا ، وذلك فى الشقة التى كان يقطنها مع زوجته دومنيك بجوار غابة فنسين .

وقد كنا نأمل لهذا الكتاب الصغير الذى ساهم فى تمجيد الشاعر وأمد هذا المجد بجذور لاعداد لها ، أن يظل لمدة طويلة وفى كل مرة يعاد فيها طبعه منفتحا لاحتواء قصائد جديدة وهوامش ودراسات . كنا نتصور هذا الكتاب وهو يزداد على مدى الزمن غنى وكمالا وتختمه دائما مثلما تختتم كل أعمال بول ايلوار سطور من النقط لا تحمل معنى الابهام ولكنها تشير الى كل ما فى انتظارنا وترقبنا للغد من ثقة ملحة . وكنا منذ أمد بعيد نعرف أنه خالد حتى كدنا أن ننسى الثمن الذى يجب أن ندفعه فى يوم من الايام لهذا الخلود الباقى ...

وقد جاء هذا اليوم ولم يعد أمامنا الا بعض القصائد التى لم يسبق نشرها ثم الجزء الثانى من « شعر بلا انقطاع » وتتمة مختاراته للكتابات عن الفن وينتهى الامر . ويكون الرجل الذى أراد « أن يقول كل شىء » قد استنفد امكانيات صوته الفانى . فلا يسند الايام الآتية بعد ذلك الا بخلوده ويغذى بأغنيته الدائمة كلمة البشر المقبلة .

لقد اكتسبت شرفا يدعو الى اليـــأس وهو أن أختم هـــذه الصفحات بكلمة : انتهى • وقد كان على بلا شك أن أرتعش أمام هذا العمل ولم تمض على وفاة الشاعر خمسة عشر يوما • وأنا لا أزال فى حالة من البـــؤس والالم وأنا لا تزال الدموع تذلنى حتى انى أشعر أمام عمله بافتقادى الشديد لصفة الوضـــوح وكانت فى عينيه هى الفضيلة الاولى والواجب الاول لكل صداقة وكل حب •

ولكننى أعلم أن جوهر هذه الصفحات « ونمو الامل » قد حاز موافقة ايلوار • وكان قد طلب من بيير سيجير أن يضـــيفها الى دراسات المرحوم لويس باروت التى يستهل بها هذا الـــكتاب • ولهـــذا فقد أملى على الاخـــلاص لذكرى شاعرنا ولأمنيته أن أعيد نشر هذه الصفحات كمـــا ظهـــرت فى ابريل ١٩٥٠ فى مجلة « أوروبا » توطئة للقصائد التى جمعهـــــا بعد ذلك فى ديوان « العنقاء » •

تطـــور الأمـــل

انى أتصـــور روبنســـون فى الايام الاولى التى أعقبت غرقه وهو يقسم بخط رأسى الورقة التى انتشلها من الســـفينة فمن ناحية « منه » ومن ناحية « اليـــــه » • لقد كان يريد أن يقيم ميزانية مصيره على عمودين • عمود للخير وآخر للشر • ولكم كان نصيب الظلام فى الجزيرة النائية هزيلا والشقاء محتملا ! لم يكن هناك الا دموع طفل ينتابه الخوف في وحدته ، ثم صيحات الببغاء • « مسكين يا روبنسون » ! ما علينا ! ان هذا الببغاء يتحدث بغير علم فضوء العناية متألق سرمدى والحياة باقية والأدوات والأسلحة ما تزال والتوراة أيضا فماذا تريدون أكثر من ذلك ؟ ستكون هذه الحياة مثل غيرها ، حياة مسكينة كما لايغيب عنى ، قوامها الارهاق والعمل والعزلة ولكن هل يأمل فى أفضل منها ؟ هذه الحياة على كل حال ستصبح فى جيلها قدوة وسيؤسس عليها جان جاك روسو آراءه فى التربية وسيتخذ منها القـــرن رمزه الاعلى فى الفردية وعبرته الاخلاقية • « ساعد نفسك حتى تساعدك الســماء ! » • وهذه الحياة تقدم ، فى وسط الصور الجميلة ذات الالوان والمناظر الغريبة ، صورا أخرى أشد بساطة وأكثر شمولا وكأنها الصورة المثلى للانسان فى هذا الزمان : روبنسون منحنيا على حقله والفأس فى يده ، روبنسون يعمل بالمنشار أو بالفأرة فى ورشـــــــته ، روبنسون راكعا فى كوخه • يعمل ويصلى فى الجزيرة مثلما يعمل الناس ويصلون فى لندن ••

« مسكين يا روبنسون ! » ان هذا الطائر ليفقدني صبري ٠ ان ديفو قد وضع روبنسون في بيت زجاجي ولكنه لم يفعل ذلك لكي يخنقه خنقا بطيئا ولكن ليطلعنا عليه بطريقة أوفى ٠ فهو لا يحرمه شيئا مما تتكون منه أخلاقياته وعالمه ٠ فهذا الرجل المنعزل عندما يشتاق الى البشر يفتقد صحبتهم ولا يفتقد فيهم جزءا من نفسه ٠ وسوف يأتي العبد « جمعة » فيما بعد ليستوفي هذا النقص ٠ ان عالم الجزيرة هو هو العالم ولم يتغير شيء في نظر روبنسون : ان الهواء الذي يستنشقه وحيدا لايزال الهواء الذي يستنشقه الجميع ٠

●

أما الرجل الذي أريد الحديث عنه فقد كان حلمه حلما آخر ٠ فهناك ثلاثون كتابا توالى صدورها على مدى ثلاثين عاما لتعلمنا بكل ما في العبقرية من دأب ومثابرة أن بول ايلوار يؤذن بنهاية العزلة وبظهور انسان لن يكون لكلمة العزلة ولا لواقع العزلة أي معنى في نظره ٠ وقد يبدو وكأن الشاعر قد سلك في سبيل عمله هذا عشر طرق مختلفة ولكن سواء تقدم بروح المستكشف أو بدا عليه وكأنه يتردد وسواء تحدثعن الأشجار أو الوحوش أو البشر ، وسواء تطرق الى الجمال أو الثورة ، فان خطوات الشاعر تقوده دائما أبدا الى المشاركة ٠ والتآلف ٠ لا بحكم العادة مثلما يفعل بعض الناس وأرواحهم غريبة عن بعضهم البعض مثل زمرة السيد بكويك عندما يرفعون كأسهم على نفس المائدة ، ولكنها الأخوة الحقة التي تعبد تقييم كل شيء والتطابق والتماثل الذي أعلن عنه ريمبو عندما صاح: « أنا هو شخص آخر » انها طواعية الانسان في كل دقيقة وفي كل لحظة ، أمام كل البشر ، ولكل البشر ٠

فاذا تركتم مثل هذا الرجل صاحب مثل هذا القلب فى الجزيرة وحيدا دون الصيحة صادقة « مسكين يا روبنسون ! » ذلك لأنه ليس هناك أهمية فى هذه الحالة للأسلحة والأدوات ولا حتى للخلاص من الموت • فان هذا الرجل عندما يقف وحيدا على الشاطىء مثل الذين كان القراصنة فى الأزمان الخالية يلقون بهم ويتركون لهم زمزمية ماء ومسدسا ، ان هذا الرجل قد حرم عندئذ من الحياة نفسها • فهو خارج الدنيا فى فراغ أفرغ من الفضاء القائم بين الكواكب لأن الهواء الذى يمكن أن يعيش عليه ينقصه ، هذا الهواء المتكون من أنفاس البشر جميعا بكل مافيها من فساد ونقاء •

تلك كانت مغامرة ايلوار • ان ظروف الغرق عامة ومشتركة بين البشر • ان المصائب قد اختبرت مفعولها ومازالت عند خبرتها القديمة • وان الشعر ليجد غذاءه منذ القديم فى مقاضاة نفس الكارثة • ان نرفال يقول « لقد فقدت سيدة أسميها أوريليا •• » والفير تترك شاعرها فيقول : « اذا افتقدت شخصا واحدا فان كل شىء يصبح خلاء » الخ •• وفى ٢٨ نوفمبر ١٩٤٦ ماتت سيدة اسمها نوش • وكانت هى الجسر المطواع الأكيد الذى يصل بين ايلوار والبشر • وعندما فقد نوش لم يكن ايلوار يفقد حبه فحسب ولكنه كان يفقد معه العالم ثم الأمل الذى تعلم من حبه أن يوطد عليه ثقته بالعالم •

ان نوش هى التى كانت قد منحته « جمعا تجمع أخيرا » يغرق فيه ويخرج منه فى كل مرة جديدا ومتغيرا ، وكانت منحة نوش فى الساعات اليائسة الرائعة التى كتب فيها ايلوار «سبع قصائد حب فى زمن الحرب • »

ولأننا نحب بعضنا

نريد أن نحرر الآخرين
من عزلتهم المتجمدة

نريد ، أنا أريد
وأنت تريدين فنحن نريد
أن يمنح الضياء الخلود
لأزواج عليهم بريق الفضيلة
ودروع الجرأة
لأن عيونهم تتقابل

ولأن هدفهم كائن فى حياة الآخرين

ولكن نوش قد ماتت · والرجل الذى أقام أحجار العالم بمونة الحب وقف وحيدا ينظر الى البناء يخاف أن ينهدم بين لحظة وأخرى ·

●

وانى لأتذكر هذه الساعات · وأريد أن أقول حتى وان لم أجد من يتفهمنى الآن وصاح بعض الاغبياء واتهمونى بمنافاة الشعور الانسانى وبالقسوة ، أريد أن أقول انى قد عشت هذه الساعات مع ما تحمله من حزن وحنان واشفاق ، بفضول الرجل الذى شرح الظاهرة · ان خيرة البشر منذ خمسين عاما يخوضون حربا ضد العالم كما هو ، وعلى جنود هذه المعركة ، على هؤلاء « العاملين البشعين » كما يقول ريمبو ، أن يقر قرارهم على وجوب خوض الكفاح بدون رقة · انى أدع الأناقة والحياء لغيرى · فعلينا من العمل ما هو أهم وأجدى · ان الرجال اذا ما بلغوا من العمر مابلغته ثم لم يحيدوا عن الطريق أو يتخلوا عن الواجب قد أورثوا مشروعا

غريبا وهو « أن يغيروا العالم » • مثلما قال أيضا ريمبو • وانهم يعلمون أن هذا المشروع فى جزء كبير منه وهو على ما أعتقد أبسط الأجزاء ، لا يمكن أن يتم الا بالمجهود الثورى للطبقة العاملة •

ويعلمون أيضا أن كثيرا من أنواع فقدان الصبر قد ولى زمانها• وتخلص العقل من كل الذين كانوا يحلمون بالعصا السحرية • وبات من المعلوم أننا لن نشاهد طفرات مفاجئة للروح البشرية ، يجب على العالم أولا أن يصبح عادلا واضحا أخويا حتى يصبح الانسان كذلك بدوره • ولكن فى هذه المحاولة التى تبذل لتغيير العالم يتحور الإنسان وفقا لكفاحه وبقدر هذا الكفاح • يجب أن نعيد قراءة «الرجل الشيوعى» لأراجون وأن نعيد قراءة «رسائل المحكوم عليهم بالاعدام» أو نقرأها على الأقل اذا كنا لم نفعل ، ليتأكد لنا أننا لم نعد نملك نفس الروح أمام الحياة والحب والموت • هنـــاك علامات تظهر فى كل مكان تنتزع الانسان من الظلمات القديمة التى زعموا أنه مقضى عليه بالخضوع لها ، لتثبت حياته ومستقبله فى سماء يصنعها بنفسه وتخضع لأحكام منازل الحرية وبروجها وتربـــط مصيره بالكواكب والأفلاك التى يريدها •

وليس هذا بالأمر الجديد كل الجدة • فريمبو يقول : « علينا أن نعيد اختراع الحب » • والحقيقة أن الحب قد سبق اختراعه ، بل واخترع أكثر من مرة • فالحب يختلف فى مأدبة أفلاطون عنه فى روايات العصور الوسطى ، وهناك فارق بين قول تريستان لايزولد: « فلا أنا بدونك ولا أنت بدونى » وبين الرسالة التى أرسلها التى كتبها الشهيد جورج سيترن قبل أن يعدمه الالمان ، الى زوجته التى يقول فيها بتاريخ ٧ مارس ١٩٤٤ : « لا نحن ولا حبنا كل شىء فى العالم ، هناك حياة بأسرها يمكنها أن تسعدنا أو أن تشقينا ، نحن والآخرين ، ومن أجل هذه السعادة التى تكبر عن سعادتنا ولكنها تحتويها فى نفس الوقت ، وهبت حياتى » •

قلنا ان هناك فارقا بين قول ترستان ورسالة الشهيد ، هناك شيء يجب أن ندعوه تطورا ورقيا فى الحب ومرحلة جديدة تخطوها الروح فى تعمقها لما أوتيت من قدرة وسلطان ٠

فى هذه الساعات التى أذكرها وأتحدث عنها كنت أنظر الى بول ايلوار وقد أدار ظهره للمستقبل وكأنه على استعداد للتخلى عن النضال ، على استعداد ليهزم ، وكأن حماس الرجال جميعه لم يجد فتيلا وعلينا أمام الموت أن نرضى بالحكمة البغيضة البالية ٠

فهل كتب على حياة أخلصت كلها للحب أن تفضى الى هـذا ؟ ولا تمنحنا كل هذه العبقرية والآلام والصبر المبذول لتحسين الحب٠ الا أسلحة استعراضية ، ضد الشر والموت ٠ وهل نشهد مرة أخرى مهزأة الشعر كأنه لم يعد قول القائل «سوف ترون ماسوف ترون!»، وننظر الى البطل ينهار عند أقدام السور مثل الرجل العجوز بدلا من أن يتخذ وجه آدم جديد ؟ ونعود أدراجنا الى « تنتورى » يرسم ابنته الميتة أو الى «محاورة مونوس وأونا» لادجاربو ؟ أو الى باسكال وقوله : « يهال على الرأس بعض التراب ... » ؟ ألم يكن اذن أى مبالغة فى الامر ولا تهويل ؟ ولكنها الحقيقة هل هى الحقيقة الابدية تقول « يسدون ثغرك بحفنة من تراب .... » ؟ واذا قدر للصمت أن يتغلب على هـذا الرجل ، لأصبحت من الذين يؤمنون بعدم جدوى الكلام ويعتبرون الشعر كما يدعونا البعض الى ذلك لعبة أو تسلية لملء أوقات الفراغ ٠ لم أكن لأتخلى عن الأمل ٠ ولكننى على الأقل كنت سأتخلى عن هذا الأمل بالذات ٠

•

ولكن الرجل المهجور قد أخذ شيئا فشيئا يفيق من ذهوله وينفضه عن نفسه ٠ ولم يحسن الصحو فى مبدأ الامر وكان مثل

جريح لا شفاء له ما زال مهتما بالمعركة • فهو في القصيدة الختامية من ديوان «الزمن يفيض» لا يأمل نصرا لنفسه ، ولكنه يريد النصر ويتمناه ويعلنه للآخرين :

لن نمضى للهدف فرادى ولكن أزواجا
فاذا عرفنا بعضينا تعارفنا جميعا
وتحاببنا جميعا وضحك أطفالنا
من أسطورة سوداء ينتحب فيها رجل وحيد

ثم كانت « القصائد السياسية » • وهو كتاب عظيم بلاشك، كتاب مطمئن ، لم يقرأ معظم الذين تصفحوه الا قصائده ، أو انهم لم يريدوا أن يستوعبوا منه الا هذه القصائد فقد كانوا يؤمنون من وراء قراءتها ومن وراء اليونان ومؤتمر ستراسبورج وهموم بابلو نيرودا ، وأطلال وارسو ، وأول مايو ، يؤمنون بالنسيان وبالزمن الكفيل كما يقولون بتسوية الامور : « لقد عاد الى عمله ، عاد الى حرفة الشعر ، هناك تحسن •• » صغائر يمكن أن تقال ، وقد قيلت فعلا •

ولكى نتحاشى الوقوع في مثل هذه الصغائر كان يكفى أن نطلع على النص المطول الذى يفتتح به الكتاب ويمتزج فيه الشعر بالنثر • ويأتى النص مباشرة بعد مقدمة فى غاية الـــكمال كتبها أراجون ، وأغلب الظن أنه لم يكن يفكر الا فى القصـــائد ولكنه يعلم أن هذه الامور لا تتم تسويتها بالسهولة واليسر الذى يحلو للبعض أن يؤكده بعد القفول من الجنازات •

وعنوان هذا النص « من أفق رجل فرد الى أفق الجميع » وهو بلا شك من أرفع الصفحات الاخلاقية الموجودة فى العالم لم يتطرق الكلام أبدا الى النسيان ولا الى «قتل النفس فى العمل» ولا الى أى

شكل آخر مهما كان مرضيا من أشكال التخلي عن المعركة ٠

انى أتصور روبنسون فى جزيرته وهو فى أسماله البالية رعلى بعد أمتـــار منه مركبه الذى بقرته الصخور ٠ وبين حطام المركب آثار الغرق ، كل ما استطاع الرجال المجتهدون المبتكرون المصرون أن يخلقوه بعبقريتهم وعملهم ٠ وهكذا سيعود ايلوار على مركب الحب ليستولى على آثار غرقه ٠

وأنا أعلم بالطبع أن هذه الآثار وهذه البقايا قد لوثها الملح والوحل ٠ والبـــحر والموت يلوثان حتى الذهب ٠ ولــكن « كانت غرامياته الاولى تولد من جديد وتلقى نقابا من جسد ماض على الخراب النهائى » ٠٠ «وعن طريق الحواس ، كان التضامن يولد شيئا فشيئا من جديد ٠٠ » « وفيم اذن تدخل مدعى الاخلاقيـــات ؟ لقد أعيد انسان الى أمثاله من الناس ، أخا شرعيا ٠ »

●

ويجب ألا نـنــــدفع وراء الخطأ ٠ فانمـــا تستمد « القصائد السياسية » ثقلها وقوتها من هذا الميلاد الجديد ومن الصعود الحق من الجحيم ٠ لاننا اذا ألغينا هذا ، لم يعد أمامنا غير رجل يتكلم بحكم العادة وجبر الخاطر ، أو التسلية ، رجل يغنى لينسى نفسه ويضلها فغناؤه ينسانا بالمثل ويضلنا : لا يمكن أن ينقذ الآخرين من لم ينقذ نفسه ٠ لم أعد أذكر أى وغد من الاوغاد كتب يوما يقول أن ايلوار قد ذهب الى اليونان مثل بايرون ولكنه لم يذهب ليموت ٠ كان الأوغاد يريدون أن يسروا بموته ، ويصبح كل شىء على مرامهم اذا استطاعوا ، الى جانب الاسباب المتـألقة التى تدعو الى الحرية ويستضىء بها الانفجار على أسوار ميسولونى ، أن يقدموا الأسباب الابدية المظلمة لمصير الفرد ، ويفيدهم موت الشاعر فى التدليل على

أن وجه الانسان المظلم يظل متجها أبدا الى الليل ! لأنهم يعرفون أى نصر يحرزون اذا مات شاعر شيوعى عظيم وانهزم أمام النكبة. ويعلمون أن حياته نصر لنا • ولأنهم يدركون أن أسباب هذا النصر يجب أن يتم البحث عنها ، فى أشد ما يرعبهم ويخيفهم ، ألا وهى الخطوة الى الأمام التى يخطوها الانسان فى صميم وعيه وضميره •

لأننا اذا فتحنا اليوم آخر كتب بول ايلوار «الدرس الاخلاقى» وجدنا أنه قد استعاد الامل وأسهم العالم المحيط به بالنصيب الاكبر فى استعادته له ، فمنذ الآن

« يوما بعد يوم يفسخ الشقاء مكانه للفجر » لكل الآخرين •

ويتقهقر مســاء اليونان أمام شـــمس الصين ، أمام انتصار الشعوب الذى يريد الشعور أن يكون انتصارهم • ثم كل ما نرغب فيه هنا ، من كفاح عمال الموانى ضد الحرب الى أصغر انتصار عمالى فى مصنع مجهول ، ومن أضأل زيادة فى الاجور الى هذا النبأ الذى يفوق فى عظمته كل ما يمكن أن يحلم به الانسان ويقول ان القوم فى روسيا يفكرون فى عدم بيع الخبز بعد الآن ، بل توزيعه ••

ولكننا نرى أيضـــا أن ايلوار ، من أجل أن يتطور الامل ، لم يستند فقــط الى التاريخ والى الذين يصنعون التاريخ • ولكنه ضرب العدو فى ذات نفسه ، معيدا فى صميم قلبه المعركة الدائرة فى العالم بين الخير والشر •

وهى معركة الشعراء منذ مائة عام تقريبا • وبقدر مايخوضون هذه المعركة يمكننا أن نثق فى صدق وقوة الغناء الذى يصاحبون به معركة الانسان والحياة والموت •

●

ان كل شعوب العالم لحم الأمل ودمه فى هذا الكتاب الصغير، وعلينا أمامه أن نفكر فى أن الرجل هو فى الحقيقة الرمز والخميرة الجدلية لكفاح شعراء اليوم ضد العدو الذى يحملونه فى ذاتهم وهم وحدهم القادرون على مكافحته ، هذا الرجل هو لوتريامون ·

هو أيضا كان قد غاص الى القرار · ان هذا الصبى البالغ من العمر عشرين عاما أغلق غرفته على نفسه ليلا ونهارا طوال عامين يواجه سلطات الشر واليأس المدربة الخبيرة ، ارث الآداب التى سبقته ، وجاء حين من الزمن بدا فيه وكأنه يسير خاضعا طيعا فى الطريق الذى تدله عليه الشياطين ، ولكنه قبل أيام من موته صرفهم عنه الى الأبد فى كتابه «الأشعار» · لقد حطم رباط التضامن الذى كان يوحد حتى الآن بين الجمال والشقاء فتحطم بدوره ولم ينتقل الينا منه عمل متكامل ولكن وصية فقط ، توصينا بأن نعيد الى الخير ما كان حتى ذلك الوقت من نصيب الشر ، وأن نثــــور أخيرا «ضد ما يصدمنا ويحنينا بمنتهى التسلط ·

وقد اتبع ايلوار هذه الوصية فى كل أعماله · ودقت الساعة فى ذات يوم ليطيع هذه الوصية فى «شر الظروف» · وكان عليه أن يدافع عن الجمال والحقيقة وواقع العــــالم لا ضد مانفريد ورولا أوبايرون وباسكال ولكن ضد موت كان يشبه موته · وكان عليه أن يقيم الدليل على أن الجمال ، مثلما قال لوتريامون ، « ليس ملكا للموت » · وليس « الجمال الادبى » فقــــط الذى يتــــحدث عنه لوتريامون ، ولكن هذا الجمال الذى هو اليوم جمالنا وقد عرفنا كيف يصبح سلاحا لنا ·

ان ديوان «درس أخلاقى» هو قصة هذه المحاولة و « محضر » نجاحها · ففى جانب الشر هناك ، بشكل رتيب مستمر اليأس ، فراغ العالم بالنسبة للرجل المنعزل الوحيد · وفى جانب الخير هناك كل ما وهبه الحب ولم يستطع الموت أن ينتزعه :

ان التى أحبها تجسد رغبتى فى الحياة قد تآلفت بها حاضرة
فما تزال حاضرة هى نيتى فى أن أحيا بلا ندم
أن أحيا بلا ألم أن أحيا بلا موت
ليس هناك الا حياته فهى اذن كاملة ٠

لقد قرأتم هذا البيت الاخير ٠ وهو يعطينا فكرة عن خطوة العملاق الذى خطا بها الانسان منذ أن كتب ريمبو : «لا يمكن أن نتصور حياة أفظع من هذه » ٠ نحن هنا عند مفصلة الروح ، عند حدها القاطع ، على الخط الذى يفصل بين مياه التفاؤل ، وايلوار يقول في مقدمة « درس أخلاقى » :

« انى باق لأحسن نفسى ٠٠٠ »

« حتى لو لم تتح لى فى حياتى كلها غير لحظة واحدة من الامل، كنت سأخوض هذه المعركة ٠ حتى لو كان على أن أفقدها ٠ لان هناك آخرين سيكسبونها ٠

« كل الآخرين »

●

ونحن نرى المرمى العظيم الذى يرمى اليه هذا الكتاب ، وهو فى الشعر والأخلاقيات من الانتصارات الحاسمة للروح الجدلية ٠ وايلوار يتقدم فى طريق تنتظرنا فيه اكتشافات لا يمكن أن تخطر ببال ٠ نحن ما زلنا فى أول الدرب وقد أزيلت منه بعض أشواك الماضى والليل ٠ ومن بعيد ومن ورائنا رفيق طريق قد تجاوزناه ويأتينا صوته وهو جيوم أبولينير :

يا أعماق الضمير

في يوم من الايام
وسيدرسون
كل ما يعنيه أن نتألم
ولن يكون في ذلك شجاعة
ولا زهد
سيبحثون في الانسان نفسه
أكثر مما بحثوا في أى وقت مضى ٠

وأسمع الى جانبي صوتا متواضعا لا يتميز بالحذق والمهارة ولكنه دقيق وكأن طفلا يتمتم بالاحرف الاولى لعظمتنا المقبلة ، هو صوت موريس لاكازيت الذى كتب الى زوجته قبل أن يعدمه الالمان رميا بالرصاص :

« أودعك ، كوني سعيدة ، وأتمنى لك فيما بعد عندما تخفين من ألمك أن تعثرى على أليف جديد بك ، ويصعب على أن أقول لك ذلك لأنى أغار ، حتى أمام الموت ، ولكنك تستحقين السعادة فأنا أتمنى لك ذلك من كل قلبي »

وأنا أرى نوش تبتسم ، تبتسم لدومنيك « دومنيك الحضرة اليوم » كما كان يبتسم موريس لاكازيت في ٢١ أغسطس ١٩٤٣ ، وكما سيحسن الموتى في يوم من الايام أن يبتسموا بعد أن يكونوا قد ارتبطوا في حياتهم مع الأحياء روابط وثيقة يحق لهم بعدها أن ينتظروا ألا تقطع بينهم عزلة ولا نسيان ٠

(ابريل ١٩٥٠)

بلا انقطاع.. عبادة النار واختراعها

فى مستقبل قريب جدا ستولى أعمال بول ايلوار عناية لاقصور فيها ولا ثغرات · وكأنى أرى منذ الآن البـــاحثين يعكفون عليها ويستخدمون لكى يكشفوا عن سره الكبير ، كل الحيل والاسرار التى فى طاقتهم وعلمهم · وأتصور ذلك الباحث الذى سيعاود العمل فيما خطط له ايلوار من قبل فى قصيدته عن «بعض الكلمات التى كانت محرمة على حتى الآن تحريما خفيا ·· » أتصور الباحث وهو يعد فهارس المفردات الايلوارية كما سـيقول عندما يتقدم برسالته الى السوربون · وان كانت الاحصائيات قليلة الغنـــاء لمن يعرف أن المعلومات لا تعتبر مكتسبة الا اذا هى حفظت عن ظهر قلب ، فانى أحسد هذا الفتى الذى سيتسع وقته لأن يقلب الصفحات واحدة بعد الاخرى وهو يحصى الابيات ويتأكد بالأرقام من المكانة التى تحتلها عند ايلوار كلمة : نار

« أشعلت نارا عندما تخلت عنى زرقة السماء » وهذا بيت من أول الأبيات التى نظمها بول ايلوار · وبينه وبين الابيات الاخيرة التى جاءت فى « العنقاء » قبل أن تتوقف مصاحبة المغنى لغنائه :

« فطر البشر على أن يتفاهموا ويتحابوا
ويلدوا أولادا يصبحون آباء بشر
ويعيدون اختراع النار
ويعيدون اختراع البشر

بين البيت الأول وهذه الابيات يقوم البناء الذى شيده ايلوار. وهو عمل يمسنا فى الصميم ويأخذ بألبابنا لأنه يمس فينا ما هو جوهرى وأولى وأســـاسى . ولو لم يكن قلبى معرضا عن الضحك لضحكت من الذين سيحاولون الآن آن يجذبوا ايلوار نحو العدم ، ليحملونا على الاعتقاد بأن ايلوار كان يلتقط كنوزه ويبحث عنها فى الليل ، حنانيكم . لقد كان أيلوار مثلنا جميعا يخشى الليل ، ويقول لليل لا . ويكافح ضده وضد الظلام والبؤس والبرد والغياب والموت، وقد أشعل نارا وهذه النار اسمها المحبه .

ويتطلب الأمر دراسة طويلة لنتبع ، على مر الزمن ، شاعرنا فى عبادته واختراعه المستمر للنار والحب .

يا أيتها النار النامية ، أنت منذ الآن ضوء الغد ، ها هو فى عام ١٩١٨ لا يعدو أن يكون خمرة خفيفة توقد للذين لايخفق قلبهم الا من أجل اثنين وحدهما ، يكتب وهو لم يتجـــاوز العشرين فى « قصائد من أجل السلام »

كل النساء السعيدات
قد استعدن زوجهن ـ عاد من الشمس يحمل الدفء
يضحك ويقول صباح الخير برقة
قبل أن يقبل أعجوبته ...

رجل سعيد بسعادته يتأبط ذراع حبيبته . ويرقصان سويا بين أزواج آخرين فى احتفال الصلح .. فاذا اكتشفتم فيه نغمة العبقرية فلا تطلبوا منه أكثر مما أعطى . فهى نار لاتزال متواضعة ، أشعلت بين نيران أخرى ، اختلط بها لهبها ، ولكنها تشتعل بسعادتها ليس الا .

وسوف يطفئها الهجران · أو أنه كاد يطفئهـــا · فقد كانا اثنين ، وحيدين فى العالم . وقد مكث هو وحيدا . فلم يبق من حوله الا الليل والاحزان · فهل كان ذلك الرجل الحزين الباكى على دراية من أمره عندما كتب هذين البيتين مثل نار حية سوف تنقذه :

« ظلم مستحيل : شخص وحيد فى العالم · الحب يختار الحب دون أن يتبدل وجهه ؟ »

انه لا يعرف بعد أنه سوف يقول :

أنا أقابل الحب
بصور مصنوعة
بدلا من أن أقابله بصور يجب أن تصنع »

وهو لا يعلم أنه سيلتقى بنوش وأنهما سيقيمان سويا ، بدلا من التمثال اللعين الذى كان يحلم به وبدلا من الحب المجنـــون ، صورة كبرى للعقل المتوقد ، صورة ناطقة ستمضى ألفـــاظها عبر دواوين « الوردة العمـــومية » و « العيون الخصيبة » و « الكتاب المفتوح » و « فى الموعد الالمانى » و « شعر بلا انقطاع » لتؤكد هذه الحقيقة وتضيئها وتطورها :

ان الحب يشبه الجوع والعطش
ولكنه لا يشبع أبدا ولا يرتوى
ومهما تمثل فى جسد فهو يخرج من بينه
ويخرج من محيطه
وينصب الأفق سريره ·

ولقد تحدثت عما كان • وكيف حافظ ايلوار على هذا النصر الخالد بعد تجربة وآلام لا أســـماء لها • وعلى هذا النصر ، يشهد ديوان « العنقاء » •

لم يبلغ بول ايلوار فى أى عمل سابق مثلمـا بلغ فى هذا الكتاب سلطان العبقرية التام الذى لا ينـــازع ، وان قصيدة مثل « الموت والحب والحياة » يمـكن أن تعد من القـلة القليلة فى آيات الشعر الخالد •

هذه القصيدة قـــد صنعت من قطرات الدم والدموع والمرح والحب لدومنيك والظل القديم الذى لا يمكن تقاسمه والنور الجديد الذى يتقـــاسمه مع الجميع هذه القصيدة هى قلب ايلوار • وهى قصيدة ضرورية ضرورة مصيرية •

ورد نهائى حاسم على الذين يريدون أن ينتقوا فى أعمال ايلوار وأن يفرزوا هذا من ذاك وينهشون بأسنانهم مثل الكلاب لينتزعوا من أعمـــاله بعض القطع ليشبعوا تذوقهم للشعر وفى نفس الوقت تخوفهم من الرجال السائرين الى الامام • هذه القصيدة قد اقتضت كتابتها ايلوار بأسره : ايلوار الشيوعى ، وايلوار المتواضع العظيم الذى يتحدث مثلما يتحدث اخوته ويستمد قوته من قوتهم ، وهذه القوة التى لا بديل لها ، هذا الضعف القـــدسى الذى يؤلف قـــوة عبقريته ، هذا الأسلوب الذى لم يكن يمتلكه غير ايلوار ، أسلوبه فى أن يكون انسانا •

وهذا الكتاب يشع ضياؤه على مستقبل لا نبلغ اليه بالأمل فحســب بل نكاد أن نلمســـه لمس اليد ، لا يفصلنا عنه غير بعض الرجال المتهاوين حجر فى جدار سينهار أمام الشعوب •

وأنا أفكر فى حلم ويلز الطوباوى الغريب «عبور المذنب» حيث يختفى الشر من فوق ظهر الارض عندما تجرفه ذيول الغاز المنبعث من أحد الكواكب الهائمة فى السماء • ينام الرجال قليلا ثم يقومون

فاذا كل شيء قد تغير · وجاء عهد الطيبة والعقل والاخوة · ويسأل الراوى أحد الرجال الذين يعيشون على الارض وكانت حيـــاته قد بدأت بالعزلة واليأس من الحب والفقر والحرب ، يسأله عما اذا كان له « مأوى » · ولندع الكلام لويلز :

« ومد يده وبدون أن يحـــدث أي صوت ، اتسعت النـــافذة وانخفضت أمامنا : وامتدت تحت أبصـــارنا رؤية مدينة الاحلام · وأخذت أتأملها وأتأمل طرقاتها وميادينها الفسيحة وأشجارها ذات الثمـــار الذهبية ، ومياهها البلورية ، وألحانها ومباهجها والحب والجمال ينتشران في شوارعها المتشابكة المتنوعة ·· كان رجالها نفس الرجال الذين نراهم على الارض ولـكنهم تغيروا · كيف أعبر عن هذا التغيير ؟ كما تتغير المرأة فى أعين حبيبها ، كما تتغير المرأة بحب حبيبها · كانوا قد أخذوا بنشوة الجلالة ··

وكنت واقفا الى جانبه مشدوها بالمنظر ·· فقال لى مبتسما وهو يثبت على عينين تمعنان فى التفكير :

« هذا هو مأوانا »

كثيرا ما رأيت في وجه ايلوار نفس هذه الابتسامة ونفس هذه النظرة · لقد رأيتهما يوما وكنت أجلس معـــه وأعيد عليه ما قاله صديق مشترك من أن على الانسان أن يصنع من حياته آية ، وكانت حياة بول ايلوار آية جادة مفعمة بالحنـــان مبتهجة باهية ، وكانت دومنيك بالقرب منه وليس للبؤس سلطان عليهما ··

وأجابنى بول ايلوار : « كلا ! بل من حياة الآخرين ، علينا أن نصنع آية » ·

بول إيلوار.. عالم من أجل الجميع

لا يقتصر دور العبقرى على الخلق · فمن واجبه أيضا أن يكون وسيطا · العبقرى يصل بين البشر وبين كنزهم المدفون الذى يريد البعض أن يظل بعيدا عنهم مختفيا عن عيونهم على الرغم من أن هذا الكنز ثروة يمتلكونها بحق وارث ورثوه · وفى مواجهة العالم الذى تفصلنا عنه حياة الغربة وفى مواجهة الماضى الذى يقتطعنا عنه الجهل ، يساعدنا العبقرى على الرؤية ويمنحنا الرؤية . ويدعونا الى الوقوف على سفوح الضوء والعقل والمعرفة . وزمنه دائما هو زمن النهضة والعبقرى بطبيعته انسانى وهو مثل العود المعلق يتأثر ليؤثر فينا ، بكل شىء قائم من حولنا ، وبكل شىء يبقى ، وبكل شىء كان قبلنا .

ان انسانية بول ايلوار ليست جديدة عليه ، فهو صاحب اهتمام قديم بأن يجد فى كتاب الدنيا وفى دنيا الكتب البذرة والنطفة الخصيبة · وبكتاب « أعطهم ليروا » تجسدت انسانيته واتخذت شكلا منظما · فهذا الكتاب الذى يجمع أعمالا مختلفة ظهرت مبعثرة قبل ذلك فى عدة كتيبات ، يقدم لنا تحت عنوان « النظرات القديمة الاولى » ما يقرب من خمسين صفحة تتألف من آراء لبعض الادباء استشهد بها المؤلف وعلق عليها أحيانا بتعقيب مختصر · ولكن هذه الاقتباسات لم يجمعها الشاعر لمتعته فى جمعها ولا للتدليل على سعة اطلاعه · ان معناها العميق يمكن فيما أورده ايلوار من قول جوته :

« ما الأشياء التى تعرض لك فى ألف كتاب ، ســواء كانت عبرة أسطورية أو حقيقية واقعة ، غير صرح متباين يشبه برج بابل ، اذا لم يصل الحب بينها » ٠

●

ان حب بول ايلوار يزداد اتساعا وعمقا ووعيا ويجاوبه امتداد انسانيته ونماؤها المستمر ٠

ان الرجل الذى لا يزال فى « أعطهم ليروا » عالما فى بعض الاحيـــان من أجل العلم أو من أجل نفسه فهو لا يضىء الا طريقه الخـــاص ، يصبح شيئا فشيئا ، مع تزايد ما يقدمه من منتخبات الشعراء والادباء ، عالما من أجلنا ، عالما من أجل الجميع٠ ونراه يتقدم فى هذا المجال بتواضع جم ٠ فاذا طالعنا له عنوانا فى ظاهره كثير من الزهو والمباهاة مثل « خير ما تختاره من القصائد هو ما تختاره من أجلك أنت » ، وجب علينا أن ندرك أن ايلوار يريد أن يقول لنا « هذا ما أحبه » لا « هذا ما يجب أن تحبوه » ولكن على الرغم من ذلك نرى أن ايلوار قد وضع «المنتخب» الافضل للقصائد التى تمتد على قرن من الزمن ، من ١٨١٨ الى ١٩١٨ ، وأن هذا «المنتخب» أكثر المنتخبات موضوعية ، لان العبقرية الحقة لا تتميز بالغرابة ولا بالشطط ٠

والموضوعية التى نتـــحدث عنهـــا ليست موضوعية الاطلاع والتفاقه الكئيب ٠ ولكنها بنت الحياة والتاريخ ٠ ان ايلوار قد انتقى الشيء الباقى والقابل للبقاء والتأثير والفعالية ٠ وسوف يتضح لنا ذلك بطريقة أوفى فى المجلدين اللذين يضمان « أول المنتخبات الحية من شــعر الماضى » وهو صرح أدبى جدير بأعمق الاخصائيين وقد انبنى اتجاه ايلوار فى اختيار القصائد على تفسير للتاريخ لم يحد أبدا عن استقامته الصارمة ٠

والحق أن الانســـان لا يمكنه أن يحكم على الماضى وكأن هذا الماضى عهد محنط مغلق . فنيتشـه يقول : « أن **الحقيقة ذات أثر** رجعى » وان شعر اليوم بمجهوداته وتقدمه ووعيه المتزايد فى كل خطوة يخطوها بالهدف الذى يرمى اليه ، هو الذى يضىء ويوقظ شعر المـــاضى من سباته • وما أروع قول بول ايلوار فى مقـدمته لهذا المنتخب :

« ان الأضواء البعيدة التى وصلت الينا لها نفس قوة الاضواء التى نريد أن نلقيها على المستقبل »

وهو يقول نريد بضمير الجمع ، لأن شخصية بول ايلوار فى هذا الكتاب لا يحـــددها ذوقه وبحوثه الخاصة واختباراته ولكنها تتحدد باحتياجاته وباحتياجات الشعر الفرنسى كله • ان الحب الذى كان يربط فيما مضى بين الاقتباسات قـــد أصبح قويا ولكنها قوة تتجاوز بلا شك ما أراد أن يقوله جوته • انه الحب العريض الرحب حب الجميع لثروتهم المشتركة ، للتراث الشعرى الوطنى ، انه الحب المدرك المستنير الذى تتكشف له الاسباب الحقة لحب الشعراء الذين يقوم على روعة غنائهم وسحره صرح يسند لغة البشر : السعادة ، الوطن ، الحب ، السلام ••

وسيعمل ايلوار على القاء الضوء على هذا التطابق بين اللغة المشتركة وبين لغة الشعر وذلك فى كتابه « مسالك الشعر ودروبه» الذى جمع فيه خمسة أعمال اذاعية • وقد توسع فيها ايلوار فشرح مفهومه وبسط نسيج فكرته التى غزل خيوطها قبل عشر سنوات فى كتابه «الشعر اللاارادى والشعر المقصود» ودل ايلوار على أن الشعر يأتى من كل مكان وأنه يهرع الينا من الجهات الاربع •

انه ليكتشف وانه ليؤكد عندما يقول :

« هذه هي ثروة البشر ، فلنغترف منها : ان الشعر في الحياة»

وليس شعرا خاصا ، اذ ليس هنـاك أنواع في الشعر . ان ما نجده في حلم البشر ورغبتهم الملحة الدائمة في السعادة والعدل ، ان هذا الامل المتحد الجوهر في « خيال بلا حدود » ، وان تجاوز الانانية البشرية عن طريق الحب ، وان حرية الانسان فيما يعمل وايمانه بما يعمل مثلما يؤمن الاطفال ، وان القوة العميقة التي يبثها الانسان المتكلم في كل ما يقول وكأن كل شيء ممكن ، ان كل هذا ليس مظهرا من مظاهر الشـــعر ولا جانبا من جوانبه ولكنه الشعر كله . وليس هناك شعر ساذج . أما اذا قلنا بالشعر الساذج فقد وجب علينا أن نحكم على أستاذية الشعراء بالقياس الى هذا الشعر الساذج ، شعر الجميع . كلمة طفل وغنوة فلاحين ورسالة محب الى زوجته الحبيبة وصرخة الحرية والثورة وحمـــاس الانســان وولعه بالشيء الذى لا يرى روعة الا فيه ، تلك هي في نهاية الامر المتكفلة بقيمة غناء الشعراء . الشعر الذاتي يقـــوم على الشعر الموضوعي والشعر الشخصي يقوم على الشعر العام والشعر الذى يصنعه رجل فرد يقوم على الشعر الذى يصنعه الجميع . ان عمل الشعراء ليس عبثا لا طائل من ورائه ولكنه يتأسس على واقع الشعر وان الشاعر في الحقيقة « رجل مثل الآخرين » . وهذا أساس من أكثر الاسس ثباتا للواقعية في الشعر .

وقد دفع ايلوار الى نشر منتخباته عن الفن اهتمامه بأن لا يدع للشعر أو للفن فرصة ليقيما من نفسيهما مملكة في داخل مملكة واهتمامه بأن يبرهن على أن طبيعتهما الحقة التلاؤم مع مســــتوى الانسان .

وفي كتاب « رؤية » الذى يتألف من لوحات ورسوم تصاحبها وتعلق عليها قصائده أراد بول ايلوار أن يؤكد قبل كل شيء مايدين

به هو للرسامين • وأن « عمل الرسام » ـ عنـــوان قصيدته عن بيكاسو ـ عون لعمل الشاعر •

وفى كتاب آخر أوسع وأشمل وهو «منتخب الكتابات عن الفن يوضح كيف يمكن لعمل الرسام أن يساعد عمل الانسان ، فيقول فى المقدمة :

« لقد تقيد المؤلف بجمع الكتابات التى تؤكد فى رأيه بأفضل طريقة ممكنة الروابط التى توجدها الرؤية والفن بين العـــالم والانسان ، بين الانسان والمجتمع » •

ويقول أيضا :

« وقد أردت فى هذا المجلد الاول على الاخص أن نستمع الى الفنانين والكتاب الذين نقلوا فنهم الى الارض ورأوا فى أنفسهم بشرا خاضعين للبشر وفى خدمتهم ، يردون اليهم بسخاء ما تلقوه منهم • ومهما تباينت طرق الايمان والحلم والعقـــل التى أرادوا أن يخدموا بها ، عن وعى أو غير وعى ، فانهم جميعا يقفون ويشـــهدون ضد أكذوبة الفن للفن وضد تمجيد العبث • وقد لا يكونون جميعا قد تساءلوا مثلما تســـاءل فكتور هوجو وأجاب على تساؤله (اجابة تصلح للفن عموما) عندما قال : « لا ينتقص من قيمة الجمال ان يخدم الحرية وأن يعمل على تحسين الجموع البشرية • ان الشعب المتحرر ليس قافية رديئة • ان الفائدة الوطنية أو الثورية لا تنتزع شـــيئا من الشعر » • وأنا أعترف مرة أخرى ـ ولا أرى أنى قـــد تجاوزت حدودى ـ أنى قد استهدفت فيما جمعت من منتخبات أن أزيد وأن أنمى هذه الثروة الهائلة من القوى الحية ومن الامكانيات حيث ينبغى لكل البشر أن يغرفوا من معينهـــا • وانه لمجنون من يسخطه ذلك ! »

هذا هو الـــكتاب الذى تولد من ألف كتاب ومن ألف فكرة اختارتها فكرة عظيمة وصنعته ثقافة ايلوار الرحيبة · وينبغى لنا أن نغترف منه كما نغترف من الكتب التى لحقته شيئا غير الأضواء العابثة للمعرفة من أجل المعرفة ، ينبغى أن نغترف هذا النور المشع الحى الذى بعثة من أجلنا انسان عظيم ليضىء لنا يومنا ··

لم يكن أحد يبكى من أجل نفسه

كان بول ايلوار يعد المجلد الثانى من « منتخب الكتابات عن الفن » عندما دخل عليه الموت وبعثر الصفحات • فلأقف قليلا فى هذا الكتاب الذى يتناول أعمال بول ايلوار ، ولأعلق قلمى فوق رسم من هذه الرسوم الألمانية التى تصور عالما انسانيا عاكفا على كتبه ومن ورائه الموت على استعداد لأن يقطع عليه عمله وأن يضع النقطة الاخيرة لكفاحه فى غزو المعرفة •

ولكن اذا كان الموت فى هذه المرة يظن بحكم العـادة أنه قد كسب الجولة كما كسبها من قبل ومن بعد ودائما ، فقد كان الموت مخطئا • لقد أدركنا ذلك فى أيام نوفمبر التى سهرنا فيها على جثمان ايلوار فى غبش بين الصفاء والظلمة يمثل الانتقـال من الحياة الى الخلود ، لقد أدركنا ذلك مع تتابع الساعات والدموع ، وكان آخر درس نتلقاه من حياة ايلوار كما كان أول درس نتلقاه من خلوده •

أجل ، لقد كان الناس يبكون •••

وليس من المهم أن نعرف كيف بكى هذا الرجل أو ذاك وما تفوه به من كلمات وما أتاه من اشارات • لقد كنا جميعا نبكى بنفس القلب • وكنا جميعا نبحث عن كتف نعتمد عليها لنبكى • فهل كنا فى حاجة الى هذا اليوم لنعلم ما تعنيه كلمة أخ ؟

أما بول ايلوار فقد كان وهو ميت يتابع فينا طريقه • وكان موت ايلوار يسير فى باريس وفرنسا والعالم يربت بيده على كتف هذا عندما يدير جهاز الراديو وذاك عندما يفتح جريدته ، ويبعث برقية الى نيرودا فى منزله على شاطىء المحيط الهادى فى قلب الربيع الشيلى ، ويدخل الى مكتب اهرنبورج فى موسكو ، ويترصد ناظم حكمت بالقرب من كشك الجرائد ، وفى كوبا يضع اصبعه على قلب نيكولاجيين وفى نابولى على قلب حبريلا ميسترال وفى برلين على قلب برتولد بريخت • ويضع نفس القناع على الوجوه الشهيرة والمغمورة فى طرف العالم وفى شارعنا • ويمضى على هذا المنوال من رجل الى أخيه قائلا : « أنا موت بول ايلوار » • ويحدث لرجل مجهول فى كوبنهاجن أن يكتب لأراجون دون سابق معرفة ليدفع عن نفسه هذا الموت • ورجل آخر يوقظ أصدقاءه فى الليل • ورجل ثالث يتصل تليفونيا بحبيبته • والشاعر الفنزويلى كارلوس أوجستو ليون ينظم ضد هذا الموت قصيدة باللغة الفرنسية • ورجل آخر يذرف الدموع من منبعها القديم •

ووضع بول ايلوار فى نعشه تحت المصباح ، وفتحت الابواب وتدافعت اليه الجموع • وأدركنا هذه المرة أنها لم تكن النهاية ولكنها بداية قصة أطول لم تستغن بعد عن الدموع والعبرات ولكنها منذ الآن تتجاوز الدموع •

أجل ، لقد كان الناس يبكون كل أنواع البكاء • ولكن نفس الألم الاخوى هو الذى يدفعهم • ولم يكن أحد يبكى من أجل نفسه أو من أجل كلمة لا يستطيع أن يتقاسمها مع الآخرين أو من أجل سر من الأسرار يشترك فيه مع الشاعر • فاذا كان البعض قد جاء بمفرده تقوده ذكرى قصيدة أو بضعة أبيات أو كلمة لا تنسى أو افتتان يتخيل أنه خاص به ، اذا كان البعض قـــد جاء منفردا وحيدا فى انفعاله

محتشما فى حزنه فقد كان هذا البعض يدرك فجأة أمام آلام الآخرين أنه لا يحمل الحداد وحده ولكن جميع الموجودين يشاطرونه الحداد ورأيت الذى جاء منفردا يعود الى بيته مع آخر وآخر وآخر • وإنا أتصور الصداقات التى عقدت فى هذا اليوم والعزلات التى انتهت • ورأيت الذى لا يكاد يعرف أخاه بل ويظن أنه يبغضه ، ينطلق اليه ويحتضنه ••

وقرأت هذه القصة فى احدى الرسائل التى توالت علينا: لقد أخبر رجل صديقته أن تلاميذ المدرسة فى « فيلفرانش - دى - رويرج » ينوون أن يكتبوا لدومنيك ايلوار •

وأجابته صديقته :

- يجب عليهم أن يكتبوا لكل منا •
- لكل منا ؟ أنا لا أفهم ما تقصدين •
- نعم لكل منا ، فنحن نفتقده جميعا •

وكانت هذه هى معجزة الألم الذى أصبح بهجة صارمة عذبة تضم وتتوج معجزة هذا الشعر الذى يتحدث الى الجميع عن الجميع ولا يمنحهم الا أصدقاء واخوة •

كان ايلوار قد عمل بكلمة لوتريامون التى تقول « ان الشعر الشخصى قد ولى زمانه » ورأينا نحن انتصاره فى أولى أيام خلوده ، فى كل الذين جاءوا اليه ، طلابا وعمالا ونساء وفتيات ، أتجهوا اليه مثلما يتجهون الى أشعاره ومثلما سوف يتجه المستقبل الى غنائه ، لا ليحبوا أنفسهم ولكن لكى يحبوا ، لا لينعزلوا مع أنفسهم ولكن ليتحدوا مع الآخرين ، « أفواجا تجمعت أخيرا » • لقد رأينا فجر انتصاره وانتصارنا وكنا هناك فى الليل حطاما مبعثرا ولكننا

على استعداد لنتآلف ونلتئم فى دائرة الحب التى فصمتها الكراهية.
وكان هو فى الليل يلح علينا ويأمرنا من قرارة صمته :

على الانسان وقد تخلص من ماضيه السخيف
أن يطالع أخاه بوجه مشابه
ويمنح العقل جناحا شرودا

وان الذين يكرهون الحب على الارض أشـــد الكره وان الذين ترعشهم بسمة الثقة يتبادلها انسان وأخوه وان الذين يقوم سلطانهم على عزلة الانســان وان الذين يأملون ألا تقوم قائمة لايلوار وأن يثوى وحيدا الى الأبد فى ظـلام قبره ، كانوا يعلمون ذلك . وقد عملوا كل ما فى طاقتهم ليمنعوا الناس من البكاء على الشاعر وليمنعوا كل الذين يحبونه ويوحدهم غناؤه من أن يصطحبوه .

ولكن باريس قد خرجت وراءه وغمرت قبره بالقرنفل الاحمر. وهو يترقب تحت الأزهار ليعود الينا وبيننا فى قلب موكب منتصر نحمل فيه حداده العظيم . لقد دفن هنا فى أعماق أرضنا وكأنه بذرة الشمس والحرية . وانه ليعلم دائما ، خيرا مما نعلم ، كل ما سوف يكون .

فلنستمع اليه :
ان الموت والارض
وبشاعة أعدآئنا
رتيبة اللون مثل ليلتنا
ولنا النصر عليهم .

على الشعراء يستهدف الحقيقة العملية

ولكن على أن أختم كلامي وأن أتحدث في النهاية عن هذا الرجل الرائع الذى كان صديقي وأستاذى وكأنما قد تمت تسوية الامور مع الحزن والغيبة ، وكأنما لا تنتصب صورته أمام عيني كلمـــا رأيت وجها أخويا أو شارعا أو فكرة أو كتابا • على ألا أقول «بول•••» بل أحاول أن أتبين ما سوف يعنيه اسم ايلوار للأجيال القادمة •

فهل افتقدنا بغيابه الارض تحت أقدامنا لنظل على هذه الحالة من الحسرة ؟

هل افتقدنا شاعرا مات ؟ ان أحب الشعراء وأعظمهم لم يتركوا مثل هذا الفراغ • لقد كان الناس فيما مضى يجدون التعزية والمواساة في جمل جميلة محفوظة : « سوف تحتاج الطبيعة الى أمد طويل حتى تصنع من جديد مثل هذا الدماغ • وكان الأدب يسير في الجنـــازة ثم يواصل طريقه •

ان صورة ايلوار في حقيقة الامر لا يمكن تلخيصها في صورة الشاعر التقليدى • انه مرآة الشـــعر في أسمى أشكاله وفي أجل ما يطمح اليه • ان ايلوار لا يمثل فن صناعة القريض ولكن فن ابداع العالم • لم يكن فنانا فحسب فنأسف عليه ولكنه كان رجلا يشهد على قوتنا الخالقة وعقلنا العامل •

أنا أعلم ما افتقده العالم عندما مات رونسار وبودلير ومالارميه:

وسطاء بين الانسان والجمـــال • أما ايلوار فنحن نفتقد فيه هذه الوساطة أيضا ثم شيئا أبعد منها مدى وأعمق جذورا اننا نفتقد رجلا قاد الآخرين الى معرفة سلطانهم وقدرتهم في أدق خفاياها وأسطع اشراقها • ان الذين أحبوه لم يتتلمذوا على يديه في حرفة الشعر فحسب : لقد علمهم حرفة الانسان وعلمهم أن الانسان نبي الانسان• وقد كانوا أتباعه حقا بكل ما تعنيه هذه الكلمة من تمام الالتزام ، وليس فيهم من لا يستطيع عندما يتــحدث عن ايلوار أن يقول مثلما قال فيدون عن سقراط :

«في مقدورنا جميعا أن نقول : انه كان خير من عرفنا من الرجال في عصره ، وكان فوق ذلك أحكمهم وأعدلهم » •

واليكم ما قلته عن ايلوار في يوم من أيام عام ١٩٤٧ عندما اجتمع بعض الاصدقاء لتكريمه وكنـــا نخشى حينذاك من أن يكون حفلنا هذا هو حفل وداعه :

« في امكاني أن أتحـــدث عن ايلوار بصفته أشد الشـــعراء احساسا بتواجد الشـــعر تواجدا ماديا ملموسا لا يرد مثل الذهب النقي في قرار القصيدة كما كنا نبـــحث عنه منذ أن صدر كتاب « صور الالهام » لريمبو •

وفي امكاني أيضا أن أرى في ايلوار الشاعر الذي بلغ في نقد الشعر قمته القصوى • فهو الذي ضرب عرض الحائط بكل ما يدعيه الشعراء من أسباب ليتخذوا موقفا ضد العالم ، هو الذي قال بل تجرأ على أن يعيد هذا القول : « ان الخبز أكثر فائدة من الشعر »

وأنا متأكد اذا ما سلكت هـــذا الطريق أو ذاك برضا بعض الناس وسخط بعضهم الآخر • فهناك من يضعون متطلبات الشعر فوق كل الاعتبارات كما أن هنـــاك من يقدمون مقتضيات الاخلاق

والعمل • وما هي في كلا الحالتين الا صـــورة ناقصة يتنافر فيها الشاعر والانسان على قول الذين يزعمون أنه لا يمكن الوفاق بينهما فيقف الشاعر على شاطىء والانسان على الشاطىء المقـابل يمد كل منهما ذراعيه لأخيه وبينهما نهر من الظلام يستحيل عبوره •

يجب أن نجهر بالحقيقة وأن نقول أن ليس هناك عند ايلوار أى ازدواج أو أى شبهة فى التغاضى والتيسير على النفس • ويخطىء الذين يقولون اذا طالعوا هذه القصيدة أو تلك من ديوانه «فى الموعد الالمانى » : « يالها من خسارة » كما يخطىء أيضا القائلون : « لقد اهتدى أخيرا » فانهم وان كانوا أقرب الى قلبى لا يقلون فى الحقيقة عن الأولين جهلا بحرفة الشاعر •

وانها حرفة قاسية قد تحمل أفضل الناس وأصلحهم نية الى أن يؤكدوا للشاعر أنه يبالغ فى طلب الكمال وأنه يرهق نفسه وفى امكانه أن يكتفى بمجهود أقل •

انهم يقولون « ما دمتم قد لحقتم بنا فامكثوا معنا على الدوام ! لا تتحدثوا بلغة غير لغتنا . ألم يكن هذا ما تطالبه لوثريامون عندما قال : « كتابتكم للشعر ليست سببا معقولا لتنفصلوا عن سائر البشر »

وينسى الذين يفكرون بهذه الطريقة أن التضامن بين البشر والشعراء لا يقوم فقط على الوعى بزمالة تجد تمجيدها الأسمى فى أخوة العمل ، ان أراجون على حق عندما يؤكد فى كتابه « الانسان الشـــيوعى » : « ان الاســباب التى دفعت لانجفان وجوليوكورى وبيكاسو وايلوار الى أن يصبحوا شيوعيين أسباب طبقية » •

ولكن أراجون يقول أيضا : « ان هذه الاسباب الطبقية يشترك فيها أولئك الذين ولدوا عمالا وأولئـك الذين استطاعوا من داخل

البرجوازية التي ولدوا فيها صدفة أن يروا فى الطبقة العاملة حاملة المستقبل الانسانى » ٠

فهناك شيء أكثر من الاتفاق العرضى بل وهناك شيء أكثر من ضغط التاريخ الذى يتــحدث عنه ماركس ، يدفع المتقدمين طلائع الاستكشاف فى كل المجالات الى صفوف الذين يفتحون الطريق ٠ هناك حقيقة تقول باستحالة التساهل مع القيم التى تمكننا فى كل يوم وفى كل ساعة من المضى والتقدم فى الاستكشاف حقيقة تقول بأن حرية البحث تزدهر بطبيعتها فى البحث عن الحرية ٠

لقد كان للتفـكير العلمى ، بل لقـــد كان لولع بول لانجفان بالحقيقة ، نصيب فى اتجــاهه الفكرى الى الاستنتاجات الاجتماعية التى نعرفها ، كما كان للثورة على المظاهر والعادة والركاكة نصيب فى انضمام بيكاسو الى الشيوعية ٠

هذا هو نصيب العبقرية ، العبقرية الرحبة الواسعة النادرة التى لا تكتفى بالعثور على نظام يستتب به عالمها الخاص ولكنها فى انطلاقها ووثبتها تريد أن يمتد هذا النظام الى العالم أجمع ٠

ومن المفيد أن نعيد الى الأذهان مثـــل هــذه الحقائق ليتذكر المتــذكرون أن روح الطليعة لا يمــكن احتواؤها بين جدران القفص وكأنها بلبل فقئت عيناه ، وأن الموقف الشعرى مهما بدا عليه أنه متقدم فهو موقف خاطىء اذا لم يتممه الموقف السياسى ٠

لا يمكن بأى حال من الاحوال أن نقلل من الدور الذى تلعبه الاحداث حتما ، فما كان لايلوار أن يصبح ايلوار ولا لأعمــاله أن تتجه الى ما اتجهت اليه لولا اسبانيا والحرب والاحتـــلال والمقاومة والحزب ٠ ولكن ثقل هذه الاحداث جميعا ، ألا ترون أن ايلوار قد ظل ينتظرها دائما ليلقى بها الى كفة الميزان ؟

فالى جانب حتمية التاريخ ـ التى تسرى على كل البشر ـ هناك فيما يتعلق بأعظم الشعراء والعلماء والفنانين ـ ضرورة الخلق العميقة فى داخلهم تؤكد منذ القصيدة الاولى والابتـــكار الاول قدرة خاصة بالانسان لا تشبع أبدا وتظل تبحث أبدا ولكنها تزداد كل يوم ثقة بأن ما يعثر عليه الكشافة الرواد هو ما يبحث عنه سواد المجموع .

ولذلك فعندما يستعيد الشـــعراء فى بعض الاحيـــان طريقهم الغريب الخاص يجب ألا نحرمهم من ثقتنا . انهم فى هـــذه الحال أيضا يعملون من أجلنا ويختبرون القدرة التى تحـــدثت عنها . وسوف يعودون الينا أشد قوة وأتم سلاحا ، ليضيفوا يقينهم المتجدد الى اليقين الذى نشترك فيه جميعا .

فاذا قال لنا بول ايلوار ، وما زال قوله هذا عرضة للاستغراب من جانبنا :

الارض زرقاء مثل برتقالة

فلننظر ، اذا أردتم ، الى الارض والبرتقالة ولكن علينا أن نتذكر أيضا ما تدين به الالوان للعين والعقل قبل أن نحكم بأن هذا القول محض كلام .

لأننا فى حاجة الى هذا العقل الحر وهذه العين الحرة التى ترى البرتقال أزرق ، حتى تتمكن بصيرتنا من اختراق ليل يكثر ايلوار من الحديث عنه لأن كل شيء حولنا يكثر من هذا الحديث ، والأمل الانسانى والذين يخدمونه :

« الليل الذى يقيم الانسان فيه النهار »

ان بول ايلوار هو الدليل الأكيد بأن الابتكار ، بأن العبقرية

الخالقة اسم من أسماء الحرية وسلاح من أسلحة المستقبل

●

فماذا على أن أضيف بعد مرور خمسة أعوام ؟

ان بول ايلوار قد غادر اخوته البشر وهو فى كامل نضوجه وعبقريته فى كامل فاعليتها • ولن يجدينا النـــدم على كل ما كان يمكنه أن يفعل • ان ما فعله وما قاله يقـــدم أرفع الشهادات على كرامة الانسان والشعراء !

وفي وحدة هذه الحياة وفى وحدة هذا العمل ، وفى الخلق المتصل البطولى الذى يتمثل فى البحث عن هذه الوحدة ، نشاهد كل ما تتألف منه عظمة الشعر وكرامته فى أيامنا هذه •

ونحن الآن فى قلب فترة حاسمة للفكر وللانسان ، نحن فى قلبها النابض • ان الشعر الذى يمكن أن نسـميه الشعر الفرنسى الحديث والذى يمتد من هوجو الى وقتنا الحاضر ، عبر فينى وبودلير ونرفال ولوتريامون وريمنو وكرو ونوفو وكوربيير ومالارميه وجارى وأبولينير وريفردى وأراجون وتزارا ـ ان هذا الشعر تتأكد فيه ارادة الانسان فى تغيير العالم كما لم تتأكد من قبل • وهى ارادة اجماعية وان اختلفت طرقها وتأزم بعض سالكيها وانتهوا الى مأزق، ان الشعر الحديث شعر ثورى من حيث جوهره • وان الشعر الفرنسى اليوم يقف عند نقطة التقاء هذا التراث الثورى الشعرى بالتراث الثورى الفكرى ، تراثنا الوطنى وقد زادته ثروة وتأكيدا خبرة الشـعوب الاخرى • الشعر الفرنسى الحديث ناتج هذين الخطين فى تطورهما، وعليه أن يحافظ على هذا التراث المزدوج وأن يواصله •

وليس هناك شاعر اضطلع بهذه المهمة بطريقة أشمل أو أوضح من ايلوار •

ليس هناك فى العصور الحديثة شاعر أعظم من بول ايلوار ، لأن ليس هناك شاعر قد أوضح لنا بأشد أو أفضل مما فعل كيف يبلغ الشعر الى عظمته الشاملة بمساعدة البشر على تغيير العالم ، وباجهازه على الشر الذى كان فيما مضى ينكره أو يزوقه ، فيصبح عاملا مصمما عنيدا للخير على الارض ولحكم الانسان الذى يستهل به انتصار الشعر ، ولا أوضح لنا شاعر مثلما أوضح ايلوار أن الشعراء عندما يكافحون من أجل المستقبل ، مع كل البشر ، لا يتخلون عن شىء ولكنهم يكتسبون ملامح انسان المستقبل ٠

وهو القائل فى كتاب « أعطهم ليروا » :

« لن يصبح الشعر لحما ودما الا عندما يصبح متبادلا ٠ وهذا التبادل متوقف تماما على مساواة البشر فى السعادة ، مساواة ستحمل الانسان الى ارتفاع لا يمكن أن ندرك منه الآن الا أقل القليل ٠

وهذه السعادة ليست مستحيلة

ونحن على يقين من أن هذه السعادة ستكون ، وأن شعر الغد سيصنعه الجميع ٠ وسيكون زاد الحياة وألق الهناء بها ٠

لن يصبح الشعر وجها من أوجه نشاط الانسان ولكنه سيصبح ابتهاجا فى صميم كيانه وانشراحا لا يقهر يعزف ألحانه كل البشر ٠

جان مارسيناك
باريس ٥ ديسمبر ١٩٥٢

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الدار الكاتب العربى للطباعة والنشر

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر
بالقاهرة



الثمن ٢٠ قرشاً